هيئة كبار العلماء

قضايا التكرار في القصص القرآني



تأليف

أ.د/ القصبي محمود زلط
عضو هيئة كبار العلماء
(١٣٥٧ - ١٤٣٦هـ / ١٩٣٨ - ٢٠١٥م)

إعداد
الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء

إشراف
أ.د/ عباس شومان
الأمين العام لهيئة كبار العلماء

قضايا التكرار في القصص القرآني

تأليف
أ.د/ القصبي محمود زلط

الطبعة الأولى
لهيئة كبار العلماء
١٤٤٦هـ / ٢٠٢٥م

الأزهر الشريف
AL AZHAR AL SHARIF

هيئة كبار العلماء



قضايا التكرار

في القصص القرآني

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر الشريف
هيئة كبار العلماء

قضايا التكرار في القصص القرآني

تأليف
الدكتور القصبي محمود زلط
عضو هيئة كبار العلماء

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٥ م
فهرست الهيئة المصريَّة العامَّة
لدار الكتب والوثائق القوميَّة

قضايا التكرار
في القصص القرآني

الإعداد الطباعي

إيهاب مجدي عامر

مقاس الصفحة: ١٧ × ٢٤ سم عدد الصَّفحات: ٢٧٦ صفحة

رقم الإيداع: ٢٩٩١٢/ ٢٠٢٤

الترقيم الدولي: 1-678-205-977-978

مقدمة الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء

لا يزال القرآن الكريم مغدقًا بكل حرف فيه على كل متدبر متفكر، لا يطلبُ فهمَه عقلٌ مخلِصٌ إلا فتحَ له من الفهم بابًا، وسلك به إلى النور طريقًا، وليس من عمل أشرف من تَدَبُّرِ آيات الذكر الحكيم؛ للوقوف على جَلِيِّها ودقيقها، ظاهرها ومطويها، مقيدها ومرسلها، خاصها وعامها.

وكلما توصل دارس القرآن الكريم إلى معنى جليل، اكتشف أنَّ هناك مزيدًا من المعاني التي لم يُكْشَفْ عنها اللثام بعد؛ ومن هنا كان هذا الكتاب، كاشفًا عن ظاهرة من الظواهر اللغوية والتفسيرية للقرآن الكريم، وهي ظاهرة (التَّكرار في القصص القرآني)، والقصص القرآني يشغل ما يقارب ثلث القرآن الكريم، وما كان ذلك إلا عبرةً وعظة لكل غافل، وهدى ومدارسةً لكل ذاكر.

ولما كان القصص القرآني على هذا القدر من الأهمية بين آي الذكر الحكيم، وهذا الحيز الواسع بين صفحاته، فقد تكررت بعض جُمَلِهِ وآياته، فكان لزامًا على العلم أن يشرح هذا التَّكرار؛ ليبين فائدته، ويوضح مسلكه؛ لنصل في النهاية إلى أنه لم يكن تكرارًا منذ البداية، وإنما في كل آية معانٍ جديدة، لم تكن لتصح في موضع الآية الأولى، ولا لتنتظم في عقد القرآن المتين.

كذلك يكشف الكتاب عن أنَّ المشككين في بلاغة القرآن الكريم، أو الدارسين له بوجه عام، عليهم أن يتعمقوا كثيرًا في نظرية السياق، فبه ينجلي المعنى الخفي، ويزهر القول السَّنِي، وتنجلي الحقيقة للبصائر، بما حوت الأشباه والنظائر.

ولعل المتحدث يتلفظ بكلمة واحدة غير مكررة، لكنه ينطقها بطريقة مختلفة في كل مرة، وبطريقة النطق وحدها يتغير المعنى، كما تقول: (حضر محمد)، بطريقة الإخبار، فيختلف هذا عن قولك: (حضر محمد؟) بطريقة السؤال، مع أنَّ الجملة واحدة لم تتغير، فإذا كان النطق وحده يغير معنى الجملة، أفلا يغير السياق معانيَ كثيرة، تضيف إلى السامع كثيرًا من الأسرار كما هي عادة القرآن الكريم؟!

ونحن نطالع قول الله ﷻ في سورة مريم: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة مريم: ٤٢-٤٥].

ففي تكرار نداء سيدنا إبراهيم عليه السلام أباه (يا أبت) استمالة لقلبه، وإعمال لعاطفته، ربما يرده ذلك عن التعنت، والكبر، وحث له على التدبر في النصيحة، وذلك كما في تكرار نداء سيدنا لقمان عليه السلام ولده (يابني) في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٦-١٧].

فالتكرار في الموضعين لاستمالة القلب، وتحفيز شعور الأبوة والبنوة؛ حتى يهدأ العقل عن المكابرة، لكن في قوله ﷻ ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ [هود: ٤٢]، لم يتكرر النداء، وإن كان الموقف أدعى لرغبة الأب في استجابة ولده، فلمَ تكرر النداء في آيات سورتي مريم، ولقمان، ولم يتكرر في آية هود؟ ذلك أنَّ موقف آية هود لا يحتمل الإطناب، ففي خضم الموج الذي هو كالطود العظيم، لا مجال إلا للإيجاز، ربما يمنح الوقت، في هذه اللحظة ما لم يمنحه في حياة ولده بأكملها.

من هنا ندرك أهمية قضية التكرار في القصص القرآني، وبيان أسراره، وغوامضه، والوقوف على علله، ونتائجه في النفس الإنسانية، وسبحان من هذا كلامه.

وهيئة كبار العلماء إذ تقوم بإخراج هذا الكتاب النافع إلى النور، فإنها تثمن لأحد أعضائها وأستاذ التفسير وعلومه في جامعة الأزهر، فضيلة الأستاذ الدكتور/ القصبي زلط رحمه الله هذه المعالجة القيمة، التي استعرض فيها مواطن التكرار في القصص القرآني، وتتبع أسراره، وشرح كل موضع حدث فيه التكرار ولو في حرف واحد، وبين مقاصده وأسبابه، كما أنه محاولة للوقوف على شيء من أسرار التكرار الأخرى، وأسرار اختلاف القصة في أسلوبها وإضافاتها؛ حتى يتضح أنَّ هذا التكرار ليس تكرارًا آليًّا أو مملًّا، وإنما هو إعجاز لا يستطيعه بشر.

ترجمة الأستاذ الدكتور/ القصبي زلط

هو الشَّيخُ العلَّامةُ الأستاذُ الدكتور القصبي بن محمود بن حامد بن علي العزي الشهير بأبي زلط.

وُلِدَ في الثَّاني عشَرَ منْ رمضانَ سنةَ ١٣٥٧هـ، المُوافِقِ الخامسِ منْ نوفمبر عامَ ١٩٣٨م، في قريةِ سجينِ الكوم، التَّابعةِ لمركزِ قطورٍ، بمحافظةِ الغربيَّةِ.

نشأَ فضيلتُه في رحابِ أسرةٍ عُرِفَتْ بالتَّديُّنِ والصَّلاحِ؛ حيثُ كانَ والدُه منْ حفظةِ كتابِ اللهِ، وكانَ يحلمُ بأنْ يكونَ ابنُه هذا عالمًا منْ عُلماءِ الأزهرِ الشَّريفِ؛ ولهذا دَفَعَه لحفظِ القرآنِ الكريمِ، فأتمَّه في العاشرةِ من عُمُرِه، ثمَّ التحقَ بالمعهدِ الأحمديِّ بطنطا، وحصلَ على الابتدائيَّةِ والثَّانويَّةِ بتفوُّقٍ ونُبوغٍ، ممَّا أهَّلَه للالتحاقِ بكليَّةِ أصولِ الدِّينِ بالقاهرةِ؛ حتَّى تخرجَ في قِسمِ الدَّعوةِ، ثمَّ حصلَ على درجةِ التَّخصُّصِ «الماجستير» في الدَّعوةِ، ودرجةِ العالِميَّةِ «الدكتوراه» في التَّفسيرِ.

عُيِّنَ واعظًا بمحافظةِ الغربيَّةِ عام ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م، فمكثَ هناك ثلاثَ سنواتٍ، عادَ بعدَها إلى جامعةِ الأزهرِ؛ حيثُ عُيِّنَ مُدرِّسًا بقسمِ التَّفسيرِ بكلِّيَّةِ أصولِ الدِّينِ بالقاهرةِ، وتدرَّجَ في المناصبِ حتَّى أصبحَ أستاذًا في التَّفسيرِ وعلومِ القرآنِ.

تولَّى فضيلتُه الكثيرَ مِنَ المناصبِ القياديَّةِ والعِلميَّةِ والدَّعويَّةِ الرَّفيعةِ، فكانَ نائبَ رئيسِ جامعةِ الأزهرِ لفرعِ الوجهِ القبليِّ، وعضوَ مجمعِ البُحوثِ الإسلاميَّةِ، وعضوَ البرلمانِ المِصريِّ.

وكانَ لفضيلتِه نشاطٌ دعويٌّ واسعٌ؛ فجابَ القُطرَ المِصريَّ يدعُو إلى اللهِ على بصيرةٍ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، فألقَى آلافَ الخُطبِ والدُّروسِ في المساجدِ والجمعيَّاتِ، وقدَّمَ مئاتِ الحلقاتِ التِّليفزيونيَّةِ والإذاعيَّةِ، وكتبَ كثيرًا مِنَ المقالاتِ الَّتي زيَّنَتْ صدرَ الصُّحفِ والمجلَّاتِ.

ولمْ يقتصرْ نشاطُه الدَّعويُّ على مصرَ فقط، بلِ امتدَّ إلى أنحاءِ العالمِ العربيِّ والإسلاميِّ والغربيِّ؛ فحاضَرَ في كثيرٍ مِنَ المراكزِ الإسلاميَّةِ بالدُّولِ الأوروبيَّةِ والغربيَّةِ، ومنْها: النمسا، وفرنسا، ولندن، وسويسرا، والولايات المتحدة الأمريكية... وغيرها، كما ألقَى عددًا مِنَ المُحاضراتِ في بعضِ دولِ شرقِ آسيا، مثلُ: ماليزيا، وإندونيسيا.

وتتويجًا لهذه الجهودِ العظيمةِ اختِيرَ فضيلته عضوًا مِنَ الأعضاءِ المُؤسِّسِينَ لهيئةِ كبارِ العُلماءِ بالأزهرِ الشَّريفِ بعدَ عودتِها مرَّةً أخرى عامَ (٢٠١٢م)، بناءً على قرارِ رئيسِ الجمهوريَّةِ رَقْم (٢٤) الصَّادرِ في السَّابعِ والعشرين منْ شعبانَ ١٤٣٣هـ، المُوافِقِ السَّابعَ عشَرَ منْ يوليو ٢٠١٢م، بتشكيلِ هيئةِ كبارِ العلماءِ بالأزهرِ الشَّريفِ منْ (٢٧) عالمًا برئاسةِ فضيلةِ الإمامِ الأكبرِ الشَّيخِ أحمد الطيب شيخِ الأزهرِ الشَّريفِ.

ويُعدُّ فضيلةُ الأستاذِ الدكتور القصبي زلط منْ أبرزِ أعلامِ المدرسةِ الأزهريَّةِ الَّذين لهم جهودٌ كبيرةٌ في خدمةِ تفسيرِ القرآنِ الكريمِ وعلومِه، لا سيَّما في كتابِه القيِّمِ: «تفسير آيات الأحكام» الَّذي يقعُ في أربعةِ أجزاءٍ، وقدْ أثرَى فضيلتُه المكتبةَ الإسلاميَّةَ بكثيرٍ منَ المُؤلَّفاتِ والدِّراساتِ والبحوثِ في التَّفسيرِ وعلوم القرآنِ الكريمِ، والحديثِ الشَّريفِ وعلومِه، والدَّعوةِ والثَّقافةِ الإسلاميَّةِ، والفقهِ، والفكرِ الإسلاميِّ، ومنْها: «القرطبي ومنهجه في التفسير»، «مباحث في علوم القرآن»، «قضايا التكرار في القصص القرآني»، « دراسات في علوم الحديث»، «السيرة التحليلية في ضوء القرآن الكريم »، «فقه الأسرة»، «فقه الجنايات والحدود»، «مكانة الحرمين والمسجد الأقصى»، «الطب النبوي»، وغيرُها مِنَ المُؤلَّفاتِ القيِّمةِ.

وعقبَ حياةٍ حافلةٍ بالعِلمِ والعطاءِ والمواقفِ الإنسانيَّةِ النَّبيلةِ تُوفِّيَ فضيلتُه فجرَ يومِ الخميسِ الحاديَ عشَرَ منْ ربيعٍ الأوَّلِ ١٤٣٦هـ، المُوافِقِ الأوَّلَ منْ يناير ٢٠١٥م.

رَحِمَه اللهُ رحمةً واسعةً، وأنزلَه منازلَ الأبرارِ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[يوسف: ١١١].

مقدمة المؤلف

إنَّ القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ، وعلى هذا فالقصص القرآني -وهو جزء منه- لا يهدف إلى التأريخ، ومن هنا «فلا يعاب عليه إهمال الأماكن والأشخاص، ولا إهمال الترتيب بين الحوادث، فإنَّ هذا وذاك من شأن المؤرخ الذي يُعْنَى بالقصص كتاريخ لا كعظات وعبر»[١].

واذا أردنا مثالًا فلنستعرض هذه الآيات التي جاءت في سورتي هود والحجر في قصة لوط[٢].

يقول سبحانه في سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾. [هود: ٧٧-٨٣].

---

(١) تفسير القرآن الكريم، ص ٥٣٧، للمرحوم الإمام الشيخ / محمود شلتوت.

(٢) الفن القصصي في القرآن، للدكتور / محمد أحمد خلف الله، ص ١٢٥.

ويقول سبحانه في سورة الحجر: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾. [الحجر: ٦١ – ٧٥].

وإذا تأملنا آيات سورة هود، فإننا نرى أنها «جرت على هذا الأساس أو على هذه الطريقة: مجيء الملائكة، ثم حال لوط واضطرابه النفسي، ثم مجيء القوم، ثم موقفه منهم وعرضه لبناته؛ حتى لا يخزى من ضيفه، ثم ردهم عليه وعزمهم على المضي فيما جاءوا من أجله، ثم موقف الملائكة وإخبارهم لوطًا بأنهم رسل ربه، ونصحهم له بالسُّرَى[١] وإخبارهم له بأنَّ العذاب نازل وأنَّ موعدهم الصبح.

وهكذا تجري القصة وقد رتبت وقائعها على أساس يشعر بأنَّ الزمن هو المحور الذي يربط هذه الوقائع المختارة، وتلك الأحداث المنتقاة من حياة لوط عليه السلام، كما تجري المحاورة بينه وبين قومه على أساس من المنطق النظري؛ إذ تدور بينه وبين قومه قبل أن يعرف أنَّ ضيفه هم رسل ربه.

---

(١) السُّرَى؛ أي: المشي والسفر بالليل، ومنه قول العرب: (عند الصباح يحمد القوم السُّرَى).

أما آيات القصة في سورة الحجر فإنها تجري على نسق آخر؛ إذ تعلمه الملائكة أنهم رسل ربه وتنصح له بالسرى وتنبئه بما سيحل بالقرية وأهلها من عذاب قبل أن يجيئه قومه، ويكون بينه وبينهم ذلك الحوار.

إنَّ المحاورة في قصة الحجر تدور بينه وبين قومه، بعد أن عرف أنَّ ضيفه هم رسل ربه، وأنهم لن يصابوا بسوء، ويشعرنا هذا الصنيع بأنَّ تسلسل هذه الأحداث لا يقوم على الترتيب الزمني، ولا على أساس من التسلسل المنطقي، الذي كان من الممكن أن يكون؛ ذلك لأن العقل يجد أنَّ لوطًا عليه السلام وقد عرف أنَّ ضيفه هم رسل ربه وأنهم من الملائكة - لا يخشى شيئًا، ولا يخاف عليهم من قومه، ومن هنا لا يعرِّض بناته لأذى أو مكروه، لكن القرآن خالف بين القصتين، وجرى على نهجين مختلفين في البناء والتركيب».

وقد حاول المستشرقون إثارة البلبلة ضد القصص القرآني، فادعوا بشريته وأنه من عند محمد، واحتجوا بأنه ليس مرتب الحوادث، فعند دراسته على ضوء ما جاء في كتب العهدين القديم والجديد، يظهر فيه مخالفات تاريخية كثيرة، ثم أرجعوا ذلك إلى أنَّ محمدًا أفاده من أسفاره ورحلاته، أو من العبيد والأرقَّاء الأعاجم الذين كانوا في خدمة السادة من قريش[1].

ولا داعي أن نستعرض ما قالوه، ولا داعي أيضًا أن نقف طويلًا في مناقشة هذه الدعوى، ويكفينا أن نقول ما قلناه قبلًا من أنَّ القصص

---

(١) انظر: العقيدة والشريعة في الإسلام ١٥ - ٢٥، للمستشرق المجري جولدزيهر، وانظر: الكتاب المقدس والإسلام لهنري سمث من ٥٠-٩٧، وانظر: الوحي المحمدي، لمحمد رشيد رضا، ٨٦، فهناك نصوص كثيرة تثبت عنهم هذه الدعاوى.

القرآني «لم يقصد به التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها، وإنما المراد به الاعتبار والعظة».

ثم نقول فوق هذا: إنَّ الأخبار التاريخية الصحيحة لم تثبت لرسول الله ﷺ أكثر من رحلتين، كانت إحداهما في طفولته، وكانت الأخرى عندما ضارب في مال خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهو شاب، فهل يكون من نتيجة هاتين الرحلتين هذا الأثر الهائل من القصص القرآني، ثم من أين لهم أنَّ الرسول ﷺ كان يستمع أثناء رحلاته إلى هذا القصص؟

يبدو أنَّ المستشرقين كانوا يناقشون الأخبار التاريخية عندما تحول بينهم وبين ما يشتهون، وكانوا يسلمون بها عندما تشهد لهم، وقد نبه إلى ذلك الدكتور/ طه حسين، وهو يناقش بعضهم عندما ادعى أنَّ من مصادر القرآن شعر أمية بن أبي الصلت فقال: «والغريب من أمر المستشرقين في هذا الموضوع وأمثاله أنهم يشكون في صحة: السيرة، نفسها، ويتجاوز بعضهم الشك إلى الجحود، فلا يرون فيها مصدرًا تاريخيًّا صحيحًا، وإنما هي عندهم كما ينبغي أن تكون عند العلماء جميعًا طائفة من الأخبار والأحاديث تحتاج إلى التحقيق والبحث العلمي الدقيق؛ ليمتاز صحيحها من منحولها، هم يقفون هذا الموقف العلمي من السيرة، ويغلون في هذا الموقف، ولكنهم يقفون من أمية وشعره موقف المستيقن المطمئن مع أنَّ أخبار أمية ليست أدنى إلى الصدق ولا أبلغ في الصحة من أخبار السيرة، فما سر هذا الاطمئنان الغريب إلى نحو من الأخبار دون الآخر[1]؟»

---

(١) في الأدب الجاهلي للدكتور/ طه حسين ١٤٣.

أما ادعاء أنَّ الرسول ﷺ أخذ عن الأرقَّاء والعبيد الأعاجم، فهو ادعاء كشف القرآن الكريم بطلانه عندما ناقش مشركي مكة فيه، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]

وكثيرًا ما يدور في الذهن هذا التساؤل. لماذا وقع التكرار في القصص القرآني على هذه الصورة التي نراها في القرآن الكريم ؟

حاول الباحثون القدامى أن يجيبوا عن هذا التساؤل، فقال الباقلاني:

«إنَّ إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة وتبين البلاغة»[(١)].

ويقول أيضًا: «وأعيد كثير من القصص القرآني في مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة، ونبهوا - أي العرب - بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ ومكررًا»[(٢)].

ومعنى هذا أنَّ الباقلاني يرجع سر التكرار إلى إظهار الفصاحة والبلاغة؛ حيث إنَّ عرض القصة بأساليب مختلفة يظهر ذلك واضحًا جليًّا.

ويرجع الباقلاني أيضًا سر التكرار إلى توسيع مجال المعارضة والمحاكاة أمام العرب؛ حتى يسلموا بعجزهم عن المعارضة، ويقروا أنهم لن يستطيعوا ذلك قبل التكرار أو بعده.

(١) إعجاز القرآن، للباقلاني، ص ٦١.

(٢) السابق: ص ١٥.

وتحدث «الزركشي» في برهانه عن دواعي تكرار القصص القرآني فذكر أنَّ القرآن إذا كرر القصة زاد فيها شيئًا، ثم ضرب مثالًا لذلك فقال: «ألا ترى أنه ذكر الحية في عصا موسى عليه السلام، وذكرها في موضع آخر ثعبانًا، ففائدته أن ليس كل حية ثعبانًا وهذه عادة البلغاء أن يكرر أحدهم في آخر خطبته أو قصيدته كلمة لصفة زائدة».

وذكر الزركشي أنَّ من جملة الدواعي كذلك إظهار عجز العرب بعد توسيع مجال المعارضة بالتكرار، فقال: «إن الله سبحانه أنزل هذا القرآن، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية؛ لصحة نبوة محمد ﷺ، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم بأن كرر ذكر القصة في مواضع، إعلامًا بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاءوا وبأي عبارة عبروا»(١).

ونقول: لعل من أبرز دواعي التكرار: الإضافات الجديدة التي تحملها القصة في كل عرض؛ لتنويع الفائدة - كما أشار الزركشي - فنحن إذا استعرضنا القصص الذي تكرر طالعتنا هذه الإضافات في كل عرض، ولقد أشار الإمام «محمد عبده» إلى هذا فقال: «ومن سنة القصص المكررة أن يذكر في كل منها ما لم يذكر في الأخرى؛ لتنويع الفوائد»(٢).

وكثيرًا ما نرى مثل هذا القول منتشرًا في تفسيره.

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣/ ٢٦، ٢٧.

(٢) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٨/ ٤٩٦، وانظر: القصص القرآني ٣١١ (رسالة دكتوراه بمكتبة أصول الدين) للدكتور/ عبد الباسط بلبول.

ويقول صاحب القصص القرآني: «ويبدو أنَّ أبرز داعية من دواعي التكرار، ما يحمله التكرار من فوائد في كل عرض»[١].

ويبدو أيضًا أنَّ أي قصة تكررت كان لها غرض ديني في كل سورة ذكرت فيها[٢]، ولعل هذا يكشف أسرارًا أخرى من أسرار التكرار، ويكشف مع هذا أسرار اختلاف القصة في الأسلوب والإضافات في السور التي عرضت فيها، وهذا مجال واسع عريض.

ويلاحظ أنَّ القصص الذي تكرر كان تارة يتكرر بجملته، وتارة أخرى يتكرر جانب أو مقطع منه، وتارة ثالثة يتكرر موضوعه، بمعنى أنه يذكر جانبًا من القصة في سورة، ويذكر جانبًا آخر في سورة أخرى، فإذا ضُمَّتْ هذه الجوانب إلى بعضها أنتجت موضوعًا أو قصة حول موضوع معين.

ومع كل هذا فقد كان من منهج القصص القرآني أو من طريقته في العرض ألا يُعْنَى بتفصيلات أو جزئيات لا يتعلق بها غرض ديني، فقد تكررت قصة نوح نحو عشر مرات، ومع هذا لم يتناول أي عرض للقصة (ماهية التَّنُّور الذي فار بإذن الله، وهل كان الطوفان عامًّا أو خاصًّا؟ ومن هم الذين أقلتهم السفينة مع نوح؟ وكم يومًا بقوا فيها؟ وأين هبطوا؟ وكم بقي الماء غامرًا للأرض؟

---

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه لعبد الكريم الخطيب بتصرف.

(٢) سيكلوجية القصة في القرآن ٥٠٧، للدكتور/ التهامي نفرة.

كما أنه لم يتحدث عن المغرقين ولا عن مجهودهم ومحاولاتهم ولا عما لقوا من الألم في أنفسهم، ولا عما أحسوا من الندم؛ لإعراضهم عن نوح ودعوته).

وأخيرًا نقول: إنَّ هذا البحث محاولة جديدة لحصر الإضافات التي انفرد بها كل عرض للقصة، كما أنه محاولة للوقوف على شيء من أسرار التكرار الأخرى، وأسرار اختلاف القصة في أسلوبها وإضافاتها؛ حتى يتضح أنَّ هذا التكرار ليس تكرارًا آليًّا أو مملًّا، وإنما هو إعجاز لا يستطيعه بشر.

أما خطة البحث فإنك تراها في تقديم كل قصة.

ولعلني بهذا أكون قد أضفت إلى المكتبة الإسلامية كتابًا جديدًا، وأسأل الله أن ينفع به، وأن يجعله خالصًا لوجهه، وأن يتجاوز عن الخطأ والتقصير. إنه سميع الدعاء.

أ.د/ القصبي محمود زلط

قصة نوح عليه السلام

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧١-٧٣].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ

أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا
وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ (٢٨) وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠
بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَٰقَوْمِ
مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ
وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ
خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣١) قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا
فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ
ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ
ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ
ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ
مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ (٣٦) وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ
عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ
أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ
ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا
وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ
وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٤٢) قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ

جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٢٥-٤٩].

قال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧].

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ

فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا
تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ
(٢٩) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٣-٣٠].

قال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفرقان: ٣٧].

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦)
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ
(١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣)
وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن
مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ
(١٢٠) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾
[الشعراء: ١٠٥-١٢٢].

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ
عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ (١٤) فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ
ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٤-١٥].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الصافات: ٧٥-٨٢].

قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦].

قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢].

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٩-١٦].

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟

رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل
لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ
تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا
﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ
لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟
مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ
وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا
ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾
وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ
وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: ١-٢٨].

بين يدي القصة

لقد تكررت هذه القصة في كثير من سور القرآن وكانت تُعرض بتفصيل أحيانًا، وبإيجاز أحيانًا أخرى.

ومن المواضع التي ذُكِرت فيها القصة بتفصيل:

سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة المؤمنون، وسورة الشعراء، وسورة القمر، وسورة نوح.

أما المواضع التي ذكرت فيها القصة بإيجاز فهي: سورة يونس، وسورة الأنبياء، وسورة الفرقان، وسورة الصافات، وسورة الذاريات، وسورة النجم.

ووجهة نظرنا في الحكم على القصة بالإيجاز والإطناب تتمثل في أنَّ كل عرض للقصة يظهر فيه حوار بين نوح وقومه، فإننا نعتبره عرضًا مفصلًا، وكل عرض لا يظهر فيه ذلك فإننا نعتبره عرضًا موجزًا.

وإنما أدخلنا سورة نوح في جملة السور التي عرضت القصة بتفصيل، وإن لم يظهر فيها عنصر الحوار؛ لأن سورة نوح أبرزت كثيًرا من مواقف نوح ومواقف القوم، فقامت هذه المواقف مقام الحوار.

وتتلخص هذه القصة في تلك المواضع التي ذكرت فيها بتفصيل في المحاورة التي دارت بين نوح وقومه، وفي الحديث عن العذاب والنجاة، وكانت المحاورة تطول أحيانًا، فيظهر فيها النداء الأول الذي وجهه نوح إلى قومه، وإجابة القوم على هذا النداء، ثم رد نوح ورد القوم مرة ثانية وهكذا... وقد تقصر فلا يظهر فيها إلا نداء وإجابة.

وقبل المحاورة، وقبل الحديث عن العذاب والنجاة - وهما العنصران الرئيسان للقصة -نرى افتتاحًا يمكن أن يستفاد منه، وهو أنَّ الله -سبحانه- أرسل نوحا إلى قومه، وأنَّ نوحًا كانت تربطه بقومه أخوة النسب. وسنتتبع القصة في هذه النقاط وفي تلك المواضع؛ لنرى ما هي الإضافات التي يحملها كل عرض؟ حتى يتضح أنَّ هذا التكرار إعجاز لا يستطيعه بشر.

أما المواضع التي ذكرت فيها القصة بإيجاز، فبعضها إشارات سريعة خاطفة تبرز نهاية القوم، وسبب نزول العذاب بهم، مثل سورة النجم، والذاريات، والفرقان، والصافات، وبعضها يبرز حديثًا طويلًا لنوح يدعو قومه فيه إلى الله، ثم يبرز نهايتهم؛ مثل: سورة يونس.

وسنكتفي بعرض القصة في المواضع التفصيلية، ونترك مواضع الإيجاز لتأمل القارئ.

افتتاح القصة

لقد تحدثت سورة الأعراف عن هذا الافتتاح فقالت: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

وتحدثت سورة هود عنه بقولها: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

وتأتي سورة المؤمنون فتقول في افتتاح القصة: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

أما سورة الشعراء فتقول في افتتاحها: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

وأما سورة القمر فتقول: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾..

وأما سورة نوح فتقول: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ومن هذا الاستعراض نستطيع أن نقول:

إنَّ السور التي تناولت القصة بتفصيل يستفاد من افتتاحها: أنَّ الله سبحانه أرسل نوحًا إلى قومه، ويتفق الجميع في ذلك ومع هذا نرى شيئًا من الاختلاف في العرض، وشيئًا من الإضافات.

وأول ما يطالعنا أننا لا نكاد نرى اختلافًا في افتتاح السور الثلاث الأول، ولكن إذا دققنا النظر نرى أنَّ هناك اختلافًا بين سورة الأعراف من جهة، وسورة هود، وسورة المؤمنون من جهة أخرى، ويظهر هذا الاختلاف في حذف الواو من افتتاح سورة الأعراف، وإثباتها في سورتي هود والمؤمنون.

ولعل السر: أنَّ ما ذكر قبل قصة نوح في سورة الأعراف لا علاقة له بالقصة، فقد تحدثت السورة قبل قصة نوح عن خالقية الله سبحانه وعن قدرته، فقالت: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

ثم قالت السورة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:٥٧،٥٨].

ومن هنا جاءت القصة بدون واو وعلى طريق الاستئناف في سورة الأعراف(١).

---

(١) انظر: درة التنزيل وغرة التأويل، للخطيب الإسكافي ١٤٩ طبع بيروت.

أما سورة هود فيبدو أنَّ القصة فيها صدِّرت بالواو؛ لعطفها على ما ذكر في أول السورة من بعثة محمد ﷺ، وما جاء به، من الدعوة إلى التوحيد، والدعوة إلى الإيمان بالبعث، فكأنه قال: لقد أرسلناك يا محمد إلى قومك وإلى الناس كافة بذلك، ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه بمثل ما أرسلناك به[1].

وأما سورة: «المؤمنون»، فيبدو أنَّ القصة فيها صُدِّرَتْ بالواو؛ لأنه قد تقدمها ذكر نوح عليه السلام ضمنًا في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ حيث إنَّ نوحًا أول من صنعه.

ونرى أنَّ افتتاح سورة الشعراء قد أضاف وحدة الرسل، وأنَّ من كذَّب رسولًا فقد كذَّب المرسلين جميعًا، فالله سبحانه يقول في افتتاحها ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وقوم نوح لم يرسل إليهم سوى نوح عليه السلام[2].

أما افتتاح سورة القمر فقد أضاف حديثًا عن قريش من ناحية اشتراكهم مع قوم نوح في التكذيب، وذكرت نوحًا بلفظ ﴿ عَبْدَنَا ﴾، «وفي ذكره بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة، تفخيم له عليه السلام ورفع لمحله، وزيادة تشنيع لمكذبيه، فإنَّ تكذيب عبد السلطان أشنع من تكذيب عبد غيره»[3].

---

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ببعض تصرف ١٢/ ٥٠.

(٢) يظهر أيضًا ذلك في سورة الفرقان في قوله سبحانه: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ ﴾ [الفرقان:٣٧]، ولكن سورة الفرقان من السور التي عرضت القصة بإيجاز واختصار.

(٣) روح المعاني للآلوسي ٩/ ٢٧١.

أما افتتاح سورة نوح، فقد أضاف بيان وظيفة نوح وأنها الإنذار، ويستفاد ذلك من قوله سبحانه: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾.

وقد يقول قائل: إنَّ هذا ليس إضافة، فقد أعلن نوح عن وظيفته في غير هذه السورة. ويجاب بأنَّ هذا البيان الذي جاء في افتتاح سورة نوح، ليس من كلام نوح، وإنما هو من كلام الله سبحانه أما في غير سورة نوح، فقد جاء على لسان نوح عليه السلام، وأضاف افتتاح سورة نوح أيضًا: قرب وقوع العذاب، ويفهم ذلك استنتاجًا من قوله سبحانه: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فالمراد بالعذاب: الطوفان، في أغلب الظن، وكأن الله سبحانه يقول له: أسرع بالإنذار قبل أن تأتي النهاية فقد قرب موعدها، وقبل أن يأتيهم العذاب فقد أوشك.

ولعل السر في إضافة، سورة نوح هذه الإضافة الأخيرة، أنَّ سورة نوح تحكي ما وقع بين نوح و قومه بعد مضي فترة طويلة من دعوته إلى الله ويؤيد ذلك الكلام الذي خاطب فيه نوح ربه، وقدم له فيه تقريرًا بما وقع، واقرأ -إن شئت- قول الله على لسان نوح في تلك السورة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ إلى آخر السورة.

وقد يؤيد ذلك أيضًا أنَّ سورة نوح نزلت بعد كثير من السور التي حكت قصة نوح. سواء أوقعت تلك الحكاية بإجمال أم بتفصيل، فقد نزلت بعد سورة الأعراف، وسورة الفرقان، وسورة الشعراء، وسورة يونس، وسورة هود[1].

---

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ح ١/ ١٠، ١١.

النداء الأول:

- تتحدث سورة الأعراف عن النداء الأول الذي وجهه نوح إلى قومه فتقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

- وتقول سورة هود عن هذا النداء: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

- وفي سورة المؤمنون نرى النداء على هذه الصورة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

أما سورة الشعراء فنراها تقول: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

وفي سورة نوح يقول الله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ويلاحظ أنَّ النداء في هذه السور كلها يتفق في أنَّ نوحًا دعا قومه إلى التوحيد، وخوَّفهم من عاقبة الإصرار على الكفر والجحود.

ولكن مع هذا نرى اختلافًا في العرض وبعض الإضافات؛ ففي سورة الأعراف نرى تهديد نوح لقومه يظهر في صورة نصح، فقد قال

المفسرون في قوله سبحانه على لسان نوح: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: إنه إنذار مستأنف جاء تعليلًا للأمر بعبادة الله وحده[١].

ولقد كشف نوح في هذا التهديد عن المهدَّد به وهو العذاب، بل وكشف أيضًا عن درجته وشدته، ويظهر ذلك من وصف العذاب بالعظم، فاليوم لم يوصف بالعظم إلا لنزول العذاب فيه، وإذا كان اليوم قد وصف بالعظم لنزول العذاب فيه فما بالك بالعذاب نفسه[٢].

ونرى في سورة هود مثل ذلك، ومع هذا نرى فرقًا في وصف اليوم حيث وصف اليوم في سورة هود «بالأليم»، والمعنى: «شديد ألمه»[٣]، ويستفاد من ذلك: مدى درجة العذاب.

أما سورة الأعراف فقد وصف بالعظيم، والمعنى عظيم ألمه، عظيم هوله، ويستفاد من وصف اليوم بالعظم مدى درجة العذاب ومدى عظم الأهوال التي كانت فيه، فلفظ عظيم يفيد، -على ما يبدو لي- أنَّ هذا اليوم كان عظيم الألم، وعظيم الأهوال[٤].

وتأتي سورة «المؤمنون» فلا نرى تصريحًا بالمخوَّف منه فقد قال فيها: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ والمعنى أفلا تخافون عقاب الله إن لم تؤمنوا.

---

(١) انظر: تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ٨/ ٤٣٧، وتفسير: الكشاف، للزمخشري، ٢/ ٨٩.

(٢) انظر: روح المعاني، للآلوسي، ٨/ ١٥٠

(٣) وهذا الألم يشعر به من يعذب فيه.

(٤) انظر: في تفسير لفظة عظيم تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١١/ ٥٢.

أما سورة الشعراء فتجمع بين التصريح والتلميح فقد قال نوح فيها: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ، وحدد المتقى بعد ذلك فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ، والمراد عقابه- على ما يبدو- ولكنها مع ذلك لا تكشف مدى درجة العذاب ولا تفصح عنها، وتضيف تكرار الأمر بالتقوى وهو تهديد أيضًا.

وأما سورة القمر، فلا نرى هذا النداء إطلاقًا.

وأخيرًا نرى في سورة نوح هذا التهديد في الأمر بالتقوى، ويلاحظ أنَّ التهديد هنا جاء من أول الأمر صريحًا.. حدد فيه المتقى منه، وهو الله سبحانه.. والمراد عقابه ولكن لا يظهر فيه أيضًا مدى درجة العذاب.

وقبل التهديد نرى في أول النداء الذي صدر من نوح تغايرًا في العرض فقد صدر النداء في سورة الأعراف بقوله: ﴿فَقَالَ﴾ ، ومثله في ذلك سورة «المؤمنون» وفي سورة هود نرى النداء قد صدر بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أما سورة الشعراء، وسورة نوح فقد صدر النداء فيهما بقوله: ﴿قَالَ﴾ ويبدو أنَّ إثبات الفاء هو الأصل، وتقدير الكلام: (أرسلنا نوحًا إلى قومه فقال)، فجاء في سورة الأعراف وسورة المؤمنون على الأصل أما سورة هود، فقد أضمر (قال)، وأضمر معه الفاء، وعلى هذا فالتقدير فيها «فقال إني لكم نذير مبين» وهذا كما في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران:١٠٦].أي فيقال لهم أكفرتم، فأضمر الفاء والقول معًا.

وأما سورة الشعراء، فلما لم يذكر فيها لفظ (أرسلنا)، لم يبق هناك داع لذكر الفاء؛ لأن داعي الإلغاء، (أرسلنا) ، وأما سورة نوح فقد حذفت الفاء.

ونرى أيضًا أنَّ نوحًا عليه السلام في هذا النداء خاطب القوم وهو يدعوهم إلى الله بصيغة الأمر، ما عدا سورة هود، فقد جاء خطابه فيها بصيغة النهي، ويظهر ذلك من قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود:٢٥-٢٦] ، ولعل السر في ذلك أنَّ هذا النهي قد سبقه الإنذار، والإنذار يناسبه النهي؛ لأن النهي عن الشيء إنذار عن مضرته.

وقد يقول قائل: إنَّ هذا منتقض بقوله سبحانه في سورة نوح على لسانه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، فقد أنذرهم نوح في هذه الآية، ثم خاطبهم ثانية بصيغة الأمر فقال: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾.

ويجاب بأنَّ افتتاح القصة في سورة نوح قد حمل هذا الإنذار فقال الله لنوح: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾، ثم تكرر هذا الإنذار على لسان نوح عليه السلام، والإنذار يحمل التخويف، فلما تكرر التخويف ناسب أن يأتي بصيغة الأمر، فالأمر ألين في الخطاب من النهي، فالنهي زجر، والأمر طلب.

وتضيف سورة نوح في ندائها الأول أنَّ نوحًا بيَّن لهم أنَّ من جزاء الاستجابة عدم أخذهم بعذاب الاستئصال وتأخير نهايتهم إلى الأجل المضروب لهم الذي حدده الله، وعندما يأتي هذا الأجل لا يؤخر، وذلك قوله: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح:٤].

إجابة القوم:

- تتحدث سورة الأعراف عن إجابة القوم نوحًا عليه السلام، فتقول: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

معنى الإجابة:

قال السادة والأشراف: إنا لنعتقد أنك بدعوتنا «إلى عبادة الله وحده وترك آلهتنا، في انحراف بيِّن عن طريق الحق والرشاد»[١].

(وهكذا حال الفجار يرون الأبرار في ضلالة كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢] وكما قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات)[٢].

وتتحدث سورة هود عن هذه الإجابة فتقول: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

المعنى:

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾

فقال الأشراف الذين كفروا من قومه، «ووصف الملأ بالكفر مع اشتراك الكل فيه؛ للإيذان بكمال عراقتهم وشدة شكيمتهم

(١) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي، ١٤/ ١٥، وتفسير الوسيط لفضيلة الإمام الأكبر محمد سيد طنطاوي، تفسير سورة الأعراف للأستاذ الدكتور/ أحمد السيد الكومي، ص ١٠٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٣ بتصرف قليل.

فيه، وليس المراد بذلك إلا ذمهم، دون التمييز عن أشراف آخرين آمنوا به عليه السلام؛ إذ لم يؤمن به أحد من أشرافهم، كما يفصح عنه قولهم: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾[1].

﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ ما نراك إلا من جنسنا، فلا مزية لك تجعلك نبيًّا.

﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ ما نراك اتبعك إلا أخساؤنا وفقراؤنا، (ويعنون بهم من دون طبقة الأشراف والأكابر، كالزراع والصناع والعمال)[2].

﴿ بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ اتبعوك بلا تفكير وبلا روية، قبل أن يقلبوا الرأي وينظروا في العواقب.

آمنوا في مبتدأ الرأي قبل أن يختمر.

﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ ﴾ وما نرى لك ولأتباعك أدنى فضل تمتازون به علينا.

﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾ نحن نرجح جانب الكذب فيكم على جانب الصدق، وهذا الحكم عام يشمل التابع والمتبوع، التابع في التصديق، والمتبوع في دعوى الرسالة.

---

(١) روح المعاني للآلوسي.

(٢) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا ١٢/ ٥٣.

- وتتحدث سورة المؤمنون عن هذه الإجابة فتقول:

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٢٤-٢٥].

﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أنكروا رسالة نوح عليه السلام بحجة البشرية، فالبشرية تنافي الرسالة في زعمهم.

﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ يريد من وراء دعواه أن يترأس ويعلو، كما قال سبحانه: ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ٧٨].

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾ ولو شاء الله إرسال رسول لأرسل ملائكة.

﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ما سمعنا بمثل هذا الكلام الذي يدعو إليه في آبائنا السابقين، ويصح أن يكون المشار إليه نوحًا، ويكون المعنى: ما سمعنا بمثل هذا الذي يدعى وهو بشر أنه رسول الله، وما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر، ورضوا للإلهية بحجر!

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ما هو إلا رجل مجنون، فانتظروا حتى ينزل به الموت ويريحنا منه.

- وتأتي سورة الشعراء فنرى إجابة القوم فيها على هذه الصورة:

﴿ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ والمعنى: كيف نؤمن لك، وكل أتباعك من الطبقة الدنيا؟ إنَّ ذلك لن يكون.

• أما سورة القمر فتقول في الإجابة: ﴿وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾، والمعنى: وصفوه بالجنون، وزجروه بالتهديد حتى يخف عن دعوته، وقد فسر هذا الزجر قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦].

مما تقدم نستطيع أن نقول:

إنَّ إجابة سورة الأعراف أضافت وصف القوم لنوح عليه السلام بالضلال بل بالاستقرار والتمكن فيه، ويدل على هذه المبالغة أنَّ القوم قد عبروا عن حكمهم هذا بالرؤية التي بمعنى الاعتقاد.

ويستفاد من هذا الاتهام رفضهم للتصديق به.

• وتضيف إجابة سورة هود: اتهام القوم لأتباع نوح عليه السلام بالكذب، ويظهر ذلك من قولهم: ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾، وإنما قلنا: إنَّ هذه إضافة؛ لأننا نرى في كثير من السور وصف القوم لنوح بالكذب، وفي سورة القمر نرى التكذيب يتكرر، يقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾، إلى غير ذلك من الآيات المتناثرة في كثير من السور التي تحدثت عن قصة نوح، ولا يستفاد من أي سورة إلا وصف نوح بالكذب، أما سورة هود، فإننا نرى فيها: وصف القوم له ولأتباعه بهذه الصفة، ومن هنا قلنا: إنها أضافت وصف القوم أو اتهامهم لأتباعه بالكذب، وتركنا ما اشتركت فيه مع غيرها.

ويلاحظ أنَّ القوم بينوا أنَّ اتهامهم هذا، صدر عن ظن لا عن اعتقاد.

ويبدو أنهم ما كانوا يعتقدون كذب نوح ولا كذب أتباعه.

- وإذا كانت إجابة سورة هود تتفق مع إجابة سورة المؤمنون، من ناحية أنَّ كلًا منهما قد كشفت، أنَّ القوم قد أنكروا الرسالة بحجة البشرية، فقالت سورة هود: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود:٢٧]، وقالت سورة المؤمنون: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون:٢٤]، ويفهم استنتاجًا من ذلك أنَّ الرسول لابد وأن يكون من جنس آخر، فإننا نرى سورة المؤمنين قد حددت هذا الجنس الآخر عندما قالت: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون:٢٤].

ومن هنا فإن سورة المؤمنون قد أضافت هذا التحديد، وأضافت ما يمكن أن يفهم لا على سبيل التحديد استنتاجًا مما تقدمه من سورة المؤمنون نفسها، أو من سورة هود.

- وتضيف سورة المؤمنون: علة ادعاء نوح للرسالة، ويظهر ذلك من قول قوم نوح: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون:٢٤]، فقد علمت أنَّ المعنى:

يريد من وراء دعوته أن يترأس ويعلو كما قال سبحانه على لسان فرعون وقومه لموسى وهارون: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٧٨].

وتضيف أنَّ القوم قد حكَّموا العادة أيضًا في رفضهم للرسالة فقالوا:

﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤]، فما أغبى هذه العقول، وما أضيق هذا الأفق!

• وإذا كانت إجابة سورة هود تتفق مع إجابة سورة الشعراء، من ناحية أنَّ كلًا من الإجابتين قد كشف أنَّ من أسباب رفض القوم رسالةَ نوح عليه السلام، اتباع الأراذل له مع اختلاف في العرض، فقد قالت سورة هود: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود:٢٧]، وقالت سورة الشعراء: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١]، فإنَّ سورة هود قد أضافت أنَّ الأراذل لا فضل لهم، ولا مزية ترفع خسيستهم، ويظهر ذلك من إجابتهم في هذه السورة بقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، وقد يقول قائل: إن لفظتي: أرذل، وأراذل[1]، يفهم منهما أنَّ الأتباع أحط شأنًا وأقل مكانة من أول وهلة، أفلا يدل هذا على أنه لا فضل لهم؟

ونقول إنَّ ما يفهم من اللفظتين صحيح، ولكن قد يكون في الأراذل مزية [2]، تجعل الأشراف لا يستنكفون من أن يتساووا معهم في اتباع نوح، ويبدو أنَّ هذا: هو ما عنوه بقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [هود:٢٧]، فدلالة اللفظتين على أنَّ الأتباع لا فضل لهم - في أغلب الظن - ليست مسلمة.

وتضيف إجابة سورة هود فوق اتفاقها مع سورة الشعراء فيما تقدم،

---

(١) أراذل جمع أرذل، وقيل غير هذا، والأرذل: الدون الخسيس، انظر مختار الصحاح، للجهوري مادة (ر ذ ل، وتفسير المنار، للإمام/ محمد عبده.

(٢) مثل قرة العصبية، أو كثرة غالبة، أو زيادة ذكاء.

كيفية إيمان الأراذل بنوح عليه السلام، ويفهم ذلك من قولهم في سورة هود: ﴿ بَادِىَ ٱلرَّأْيِ ﴾، فقد تقدم أنَّ المعنى: اتبعوك بلا تفكير وبلا روية، قبل أن يقلبوا الرأي وينظروا في العواقب، آمنوا في مبتدأ الرأي قبل أن يختمر.

- ومن الاختلاف في العرض الذي يظهر في الآيات السابقة، لفظة ﴿ قَالَ ﴾، فقد صدرت بالفاء في سورتي هود والمؤمنون، وخلت منها في سورتي الأعراف والشعراء...

ويبين، الكرماني، أنَّ سر ذلك، هو أنَّ جواب القوم في سورة الأعراف لا يليق بالجواب، أما في سورتي هود والمؤمنون، فقد أجابوه بما زعموا أنه جواب.

وسكت «الكرماني»، عن سورة الشعراء.

وفي نظري -والله أعلم- أنَّ كلام «الكرماني» منتقض بقوله سبحانه على لسان القوم في سورة الشعراء: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء:١١١]، فهذه إجابة في نظر القوم، وفى نظره [١]، ومع هذا خلت من العطف.

ويبدو أنَّ الأصل أن تصدر الإجابة على طريق الاستئناف؛ وذلك لأنها محاورة بين المرسل والمرسل إليهم، وهذا يقتضي الاستئناف، ومن هنا جاءت سورة الأعراف وسورة الشعراء خالية من العطف [٢].

ولعل السر في تصدير الإجابة في سورة المؤمنون بحرف عطف: أنَّ

---

(١) على عكس إجابة سورة الأعراف، فهي إجابة في نظر القوم، وليست إجابة في نظره؛ لأنها -على ما يبدو- لا تحمل إلا السباب.

(٢) يبدو أن نوحًا عليه السلام حضر هذه المحاورة وفهم موقف القوم منها، وقد تكون هذه المحاورة دارت بين الأشراف والعامة، لصد الناس عن نوح، وحضرها أيضًا نوح.

المحاورة فيها، لم تدر بين نوح وبين قومه، وإنما دارت بين الأشراف بعضهم وبعض، وهذا يقتضي الاستئناف.

ولعل السر في تصدير الإجابة في سورة المؤمنون بحرف الفاء بالذات، الدلالة على مبادرة القوم ومسارعتهم إلى هذا الكلام بعد أن انتهى نوح من كلامه.

ويبدو أنَّ هذا أيضًا هو سر العطف بالفاء في سورة هود. وقد ذكر صاحب المنار ذلك، فبيَّن سر العطف بالفاء في سورتي هود والمؤمنون، ولكنه لم يشر إلى سر العطف مطلقًا في سورة المؤمنون، وإليك بعض عباراته، يقول:

«واقترن جوابهم هنا [1]، بالفاء؛ لأنه هو الأصل في الرد السريع، ومثله في سورة «المؤمنون»، وتقدم في سورة الأعراف مفصولًا وهو: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ لأنه هو الأصل في باب المراجعة... ويسمى الاستئناف البياني، أما الموصول بالفاء فقد أريد به المبادرة إلى الرد على نوح بما يبطل دعوته بزعمهم» ثم يختم صاحب المنار كلامه بقوله: «فيا لله العجب من هذه الدقة في بلاغة القرآن» [2].

إجابة نوح عليه السلام:

تتحدث سورة الأعراف عن إجابة نوح عليه السلام فتقول: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ

(١) قال صاحب المنار ذلك وهو يفسر قوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾.

(٢) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١٢/ ٥٢، وانظر: درة التنزيل، للإسكافي/ ١٥١، وأسرار التكرار، للكرماني/ ٧٣.

مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦١-٦٣].

معنى الإجابة:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ ﴾ دافع نوح عن نفسه، فنفى عنها تهمة الضلال على أبلغ وجه، فقال: ليس بي أدنى شيء من الضلال، فالتاء في لفظة «ضلالة»، للمرة الواحدة، والوحدة فيها تنصرف إلى أقل القليل من الضلال(١).

﴿ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قدم نوح نفسه بهذه الجملة التي تفصح عن بعده عن الضلال بعدًا تامًّا، فمن كان رسولًا لا يمكن أن يكون به أدنى ضلال.

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ هذا إعلان عن وظيفته، فوظيفته التبليغ، والنصح، والفرق بين التبليغ والنصح أنَّ التبليغ هو: التعريف بجميع أوامر الله ونواهيه، أما النصح فهو: الدعوة إلى ما يدعو إليه بصدق وإخلاص، يقول القرطبي: النصيحة هي: «إخلاص النية من الشوائب التي تفسدها».

﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يبدو أنَّ هذه الجملة حاليَّة، وعليه فالمعنى: أبلغكم ما أرسلني الله تعالى به إليكم، وأنصح لكم فيما أدعوكم إليه، (وأنا في هذا وذاك على علم من الله أوحاه إلي لا تعلمون منه شيئًا)(٢).

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ

(١) انظر روح المعاني ٨/ ١٥٠.

(٢) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ٨/ ٤٣٨، وقد ذهب إلى أنَّ الجملة حالية.

تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٦٣].

تلمس من خلال هذا التعبير القرآني أنَّ قوم نوح تعجبوا من اختصاص نوح بالرسالة، فأخذ نوح في إزالة هذا العجب من نفوسهم، فبين لهم أنَّ ما تعجبوا منه ليس موضع عجب، فمن رحمة الله أن يرسل الرسل؛ ليحذروا الناس عاقبة الكفر، حتى يتقوا بهذا الإنذار سخط الله فيؤمنوا، وعند ذلك يتعرضون لنفحات الله ورحماته.

- وفي سورة هود يجيب نوح القوم بقوله: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:٢٨-٣١].

معنى الإجابة:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ بدأ نوح إجابته بهذا النداء؛ ليبين لهم أنه ليس غريبًا عنهم حتى يطمئنوا ويؤمنوا، ثم لفت أنظارهم إلى أنه وإن كان بشرًا، فليس مثلهم، فادعاء المثلية مرفوض، فهو بشر أعطاه الله البرهان والدليل على صدق دعواه، وأعطاه

النبوة، وسميت النبوة رحمة؛ لأنها سبب الرحمة.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ خفيت عليكم البينة[١]، فلم تفهموها ولم تهتدوا بها (وبهذا يحصل الذم لهم حيث إنه أتى بالمعجزة الجلية الواضحة، وإنها على وضوحها واستنارتها خفيت عليهم)[٢].

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أنجبركم على التصديق بها في حال كراهيتكم إياها، لا نفعل ذلك، فإنَّ الإسلام لا يصح إلا بإذعان وهذا أول نص يدل على أنه لا يصح أن يكون الإيمان بالإكراه[٣].

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ بين نوح أنه لا يبتغي المال من وراء دعوته، فأجره علي الله، ويبدو أنَّ نوحًا يحاول بهذا الكلام أن ينفي ما ألم بنفوسهم من أنه يهدف إلى المال من وراء دعوته، يقول صاحب المنار: «فهذه الجملة دفع لشبهة أخرى على نبوة نوح لابد أن تكون حاكت في صدور قومه، وقد يكون بعضهم تكلم بها»[٤].

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ (ليس من شأني ولا بالذي يقع مني طرد الذين آمنوا من قربي وجِواري؛ لاحتقاركم لهم ووصفكم إياهم بالأراذل جهلًا منكم)[٥].

﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ إنهم يلاقون ربهم فيتولى حسابهم، فهو وحده

(١) الضمير يعود إلى البينة، ويستلزم من خفاء البينة خفاء النبوة، انظر: روح المعاني، للآلوسي ١٢/ ٣٩، والبحر المحيط، لأبي حيان، ٥/ ٢١٦.

(٢) انظر القرطبي في تفسير الآية، بتصرف.

(٣) انظر تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١٢/ ٥٦.

(٤) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١٢/ ٥٦.

(٥) المصدر السابق، ويبدو أنَّ كلام نوح هذا أراد به أن يرد على قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾؛ لأن لازم هذا القول أنهم يريدون طرد هؤلاء الفقراء.

الذي يعلم هل إيمانهم إيمان صحيح، أو إيمان مدخول مبني على التسرع وعدم النظر(١).

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ أراكم قومًا تجهلون الميزان الذي يوزن به الرجال، فتظنون الرفعة والعلم في الغنى والجاه.

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لا أحد ينصرني من الله -أي يمنع عني ما استحقه من عقاب- إن طردتهم، أفلا تفهمون ذلك؟

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ يبين نوح عليه السلام أنه لم يدَّع لنفسه أكثر مما لها، فهو لم يدَّع أنه ملك خزائن الله، ولم يدَّع أنه يعلم الغيب، ولم يدَّع أنه من جنس الملائكة(٢).

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ(٣) أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا﴾ لا أقول للذين تنظرون إليهم نظرة احتقار واستهزاء لن يؤتيهم الله ثوابًا على إيمانهم.

﴿أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ الله يعلم ما أضمروه وأسروه من إيمان وإخلاص(٤).

---

(١) انظر الكشاف، للزمخشري، ٢/ ٣٠٥، وقوله: ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾، تعليل مستأنف؛ لنفي الطرد.

(٢) يبدو أنَّ نوحًا بهذا الكلام، أراد أن يرد على قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾[هود:٢٧]، فقد بين بكلامه هذا، أنه لم يدع لنفسه فضلا حتى يقال له ذلك.

(٣) إسناد الازدراء إلى العين مجاز؛ للتنبيه على أنهم استحقروهم بادي الرؤية، وبما عاينوا من رثاثة حالهم دون تأمل وتدبر في كما لاتهم، انظر: روح المعاني، للآلوسي.

(٤) يبدو أنَّ نوحًا أراد بهذه الجملة. أن يبيِّن لهم أنَّ هؤلاء إذا لم يكن لهم فضل عندهم، فإنَّ لهم فضلًا عند الله.

﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إني إذا قلت شيئًا من ذلك[١]، أكون من جملة الظالمين.

وتأتي سورة الشعراء فنراها تذكر إجابة نوح عن هذه الصورة: ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الشعراء: ١١٢ – ١١٥].

المعنى:

﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ يبدو أنَّ نوحًا عليه السلام فهم من قولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، أنهم يحاولون تشويه إيمان هؤلاء الأراذل، الناتجة عن هذا الإيمان، وأنهم لم يؤمنوا به إلا طلبًا للعزة والسيادة، فبين لهم نوح عليه السلام أنه لا يعلم إلا الظاهر، أما الباطن الذي ألجاهم إلى الإيمان فلا علم له به، فالله وحده هو الذي يعلمه، وهو الذي يتولى حسابهم عليه، ولو تشعرون ذلك لما عبتموهم[٢].

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ ليس من شأني ولا بالذي يقع مني طرد هؤلاء، ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾.

ونرجئ الحديث عن إجابة نوح في سورة القمر، وسورة المؤمنون حتى نأتي إلى إجابته الثانية التي جاءت ردًّا على الإجابة الثانية للقوم في سورتي الشعراء، وهود، فإننا سنرى أنَّ إجابته هذه في هاتين السورتين تتفق مع إجابته في سورتي القمر والمؤمنون.

---

(١) مما نفاه من أول الآية.

(٢) جواب لو محذوف تقديره: ما ذكر، انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٣، ص ١٢١.

كذلك نرجئ الحديث عن كل ما تبقى في سورة نوح حتى ننتهي من القصة كلها في كل السور، فإننا لا نرى محاورة بمعنى المحاورة..

وقفة مع الإجابة:

إنَّ الحديث عن كون نوح عليه السلام رسولًا يبلغ عن الله ما أمره به، لم تنفرد به سورة واحدة، بل هو أمر مشترك في أغلب السور التي عرضت قصة نوح بتفصيل، مع اختلاف في التعبير، فتارة يقول نوح: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، وتارة يقول: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، وتارة ثالثة يقول: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ وتارة رابعة يقول: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١].

ويلاحظ أنَّ سورة الأعراف هي السورة الوحيدة التي أعلن نوح فيها أنَّ من موضوع رسالته: «التبليغ»، ومن هنا فإننا نستطيع أن نقول إن سورة الأعراف قد انفردت بهذا التصريح وحدها، وليس ذلك إضافة أضافتها سورة الأعراف، فإعلان نوح عن رسالته، أو عن كونه نذيرًا، يقتضي أنَّ الله أمره بالتبليغ.

ولعل السر في ذلك أنَّ سورة الأعراف تحكي بتفصيل نسبي أول لقاء دار بين نوح وبين قومه، فناسب ذلك أن يكشف نوح عن وظيفته بصريح العبارة، وقد يؤيد هذا أنَّ ترتيب النزول قد وضع سورة الأعراف في أول السور التي حكت قصة نوح بتفصيل.

وقد يقول قائل: لماذا جاء التعبير عن النصح في قصة نوح في سورة الأعراف بالفعل، وهو: ﴿أَنصَحُ﴾، وجاء في قصة هود في نفس السورة بالاسم، فقال هود في إجابته فيها: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]؟

ويجاب بأن الله سبحانه حكى معنى كلام نوح، ومعنى كلام هود، وليس لقائل أن يقول: إذا كان القولان صحيحين فهلا وضع أحدهما مكان الآخر؟

وهذه إجابة تفويض وتسليم، وهناك إجابة أخرى تكشف شيئًا من سر هذا التغاير.

تقول الإجابة:

إن الضلال من صفات الأفعال التي ينتقل الإنسان عنها إلى أضدادها في الزمن القصير مرارًا كثيرة، أما السفاهة فهي من صفات النفس التي لا ينتقل الإنسان عنها إلى أضدادها في سرعة وسهولة، ومن هنا... عندما رُمِيَ نوح بفعل الضلال نفى عنه هذه التهمة بفعل محمود، وعندما رُمِيَ هود بالسفاهة، وهي صفة لا تتغير بسهولة، نفاها بصفات ثابتة[1].

وتضيف إجابة سورة الأعراف: توبيخ نوح لقومه على تعجبهم من اختصاصه بالرسالة، ويظهر ذلك من قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣]، ونوح بهذا يحاول أن يزيل هذا التعجب من نفوسهم.

- وتضيف إجابة سورة هود الحديث عن المعجزة، وأنَّ القوم لم يفهموها ولم يهتدوا إليها، ويظهر ذلك من قول نوح لهم ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ [هود: ٢٨]، فالبينة هي: المعجزة التي أعطاها الله إياه دليلًا على صدقه.

---

(١) انظر درة التنزيل، للإسكافي، ١٥٣.

ومن هنا نفهم أنَّ نوحًا كانت له معجزة، لكن ما هي؟ لم يفصح النص عنها، ولا يوجد في أي سورة الحديث عن المعجزة، فضلًا عن تحديدها.

وتضيف: أنَّ التصديق لا يكون طريقه الجبر، ويظهر ذلك من قوله: ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود:٢٨]، فالمعنى: أنجبركم على التصديق بها في حال كراهيتكم لها إنكارًا وجحودًا واستكبارًا، لا نفعل ذلك، فإن الإسلام لا يصح إلا بإذعان، وقد تقدم ذلك، وتقدمت الإشارة إلى أنَّ هذا أول نص في دين الله يفيد أنَّ التصديق لا يكون عن طريق الجبر والإكراه.

وتضيف أنَّ نوحًا أفصح في كلامه لقومه عن أنه لا يدعي لنفسه فضلًا ليس له، فهو لم يدع أنه يملك خزائن الله، ولم يدع أنه يعلم الغيب، ولم يدع أنه ملك، وهو بهذا يبين أنه لا علاقة بين النبوة وبين واحد من هذه الأمور.

وتضيف أن نوحًا بين في إجابته أنَّ الأراذل لهم فضل عند الله، ويفهم ذلك استنتاجًا من قوله لهم: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا﴾، ومن قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [هود:٣١]، فإن هذا الكلام جاء في معرض للدفاع عنهم بعد أنَّ دافع عن نفسه.

وإذا كانت سورة هود تتفق مع سورة الشعراء، من ناحية إظهار موقف نوح من الأراذل، وأنه ليس من شأنه ولا بالذي يقع منه طردهم، فحسابهم على الله، فإن سورة هود أضافت فوق هذا استحالة طردهم،

فقد أعلن نوح فيها أنه إن طردهم فإنه يعرض نفسه لعقاب الله، ولا أحد يستطيع نصره، يقول نوح في ذلك: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

• وإذا كانت سورة هود تتفق مع سورة الشعراء، من ناحية أنَّ كلًّا منهما قد أفصحت عن تشويه إيمان الأراذل، فإن سورة هود قد نصت على هذا التشويه بصريح العبارة، ويظهر ذلك من قول قوم نوح لنوح فيها ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود:٢٧]، أما سورة الشعراء فلم تصرح بهذا التشويه، وإنما فهم ذلك استنتاجًا من قولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾، والذي يؤيد هذا الاستنتاج قول نوح في إجابته في سورة الشعراء، ﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، فقد قال: البيضاوي، بعد أنَّ فسر قولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ (وأشاروا بذلك إلى أنَّ اتباعهم ليس عن نظر وبصيرة، وإنما هو لتوقع مال ورفعة)، ثم أيد استنتاج هذه الإشارة بقوله: (فلذلك قال نوح في إجابته: وما علمي بما كانوا يعملون) أي: وما علمي بأنهم عملوه إخلاصًا، أو طمعًا في طعمة، وما على إلا اعتبار الظاهر)(١).

• وإذا كانت سورة هود تتفق مع سورة الشعراء، من ناحية أنَّ كلًّا منهما قد أظهرت أنَّ نوحًا عليه السلام لا يطلب أجرًا على دعوته، وقد أظهرت سورة الشعراء ذلك في نداء نوح الأول، وأظهرت سورة هود ذلك في

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، ٢/ ١٢٩.

إجابته، أو في ندائه الثاني، فإننا نرى اختلافًا في التعبير يتناسب مع سياق كل سورة، ففي سورة هود يقول نوح: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود:٢٩]، وفي سورة الشعراء يقول نوح: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٠٩]، وأظهر ما يطالعنا من اختلاف، هو التعبير عن المسئول عنه، فقد جعله نوح المال في سورة هود، وجعله في سورة الشعراء هو الأجر.

ويبدو أن السر في ذلك أنَّ إجابة نوح في سورة هود، وقع فيها لفظ ﴿خَزَآئِنُ﴾، في قوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، ولفظ المال بالخزائن أليق(١).

ومن عجيب الأسرار: أنَّ قصة إبراهيم، وموسى عليهما السلام قد خلت من هذا القول، وقد ذكر سر ذلك صاحب «أسرار التكرار»، فقال: (وليس في قصة موسى عليه السلام؛ لأنه رباه فرعون حيث قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء:١٨]، ولا في قصة إبراهيم عليه السلام؛ لأن أباه من المخاطبين حيث يقول: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾، وهو رباه، واستحيا موسى وإبراهيم أن يقولا: وما أسألكم عليه من أجر، وإن كانا منزهين من طلب الأجرة)(٢).

---

(١) انظر أسرار التكرار، للكرماني، ٩٦.

(٢) السابق، ص ١٤٣.

الإجابة الثانية لقوم نوح:

تنتهي المحاورة في سورة الأعراف، وينتهي كلام القوم عند قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف:٦٠]، ولكنها لا تنتهي في سورة هود، ولا في سورة الشعراء، فنرى القوم في سورة هود يجيبون نوحًا - بعد أن دفع شبههم التي أثاروها، وبعد أن دافع عن نفسه وعن أتباعه - بقولهم: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود:٣٢].

والمعنى: يا نوح قد خاصمتنا وحاججتنا، فأكثرت من الخصومة والجدال، ويدل قولهم هذا على أنَّ نوحًا غلبهم وحجهم، وأنهم أصبحوا لا يجدون جوابًا، ومن هنا قالوا هذا القول، ثم أرادوا أن يغلقوا باب المجادلة والمحاجة، فطلبوا من نوح أن ينزل عليهم العذاب الذي يخوفهم به فقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف:٧٠].

وفي سورة الشعراء يجيب القوم نوحًا بقولهم: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦].

والمعنى: لئن لم تقلع عن دعوتك إيانا لنقتلنك رميًا بالحجارة.

ويلاحظ أنَّ السورتين تتفق إجابتهما في أنَّ كلتا الإجابتين، قد بينت أنَّ القوم سئموا من المحاورة والمجادلة، ويفهم ذلك من سورة هود صراحة، فقد قال القوم فيها:

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾[هود:٣٢]، أما سورة الشعراء.

فيفهم ذلك منها ضمنًا، ومع هذا الاتفاق نرى نتيجة هذه السآمة تختلف في كل سورة، وتضيف بهذا الاختلاف جديدًا، فتبرز سورة هود النتيجة في صورة طلب القوم من نوح إنزال العذاب الذي توعدهم به، ويظهر ذلك من قولهم: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، وتبرز سورة الشعراء النتيجة في صورة تهديد لنوح بالرجم إن لم يكف عن دعوته، ويظهر ذلك من قولهم: ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦].

رد نوح:

- تتحدث سورة هود عن رد نوح على القوم فتقول: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود:٣٣-٣٤].

معنى الإجابة:

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ بين نوح عليه السلام لقومه أنَّ نزول العذاب ليس في قدرته، فمرجعه إلى الله وحده، فهو الذي يقرر مصيرهم، فيقرر هل يستحقون العقوبة، أو لا؟ وهل يستحقونها عاجلًا، أو آجلًا، وأنه سبحانه إذا أراد بهم أمرًا فلن يفوتوه، أو لن يغلبوه بكثرتهم[1].

---

(١) انظر روح المعاني، للآلوسي، ١٢/ ٤٥، والقرطبي، ٩/ ٢٩، والمنار، لمحمد رشيد رضا، / ١٢/ ٥٩.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤].

إنَّ نصحي لن ينفعكم ولن يجدي معكم عندما أريده أنا، ما دام الله يريد إغواءكم، هو مالككم ومدبر أموركم، وإليه تعودون فيجازيكم على أعمالكم.

وتتحدث سورة الشعراء عن هذا الرد فتقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧-١١٨].

والمعنى أنَّ نوحًا عندما رأى من القوم إصرارًا على التكذيب دعا ربه أن يحكم بينه وبينهم، والمراد بهذا الدعاء إنزال العقوبة عليهم، ويؤيد ذلك أنه عقب هذا الدعاء بطلبه النجاة له ولأتباعه، فلو لم يكن المراد إنزال العقوبة، لما كان لهذا التعقيب معنى[(١)].

وتأتي إجابة نوح في سورة المؤمنون التي أرجأنا الحديث عنها؛ لأنها تتصل بإجابته الماضية في سورة هود، وسورة الشعراء، من ناحية أنها تتعلق بالعذاب مثلهما فنراها تقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾.

والمعنى: أنَّ نوحًا يطلب من الله أن ينصره عليهم، بسبب تكذيبهم، ويبدو أنَّ المراد من هذا الدعاء، إنزال العقوبة بهم.

- وتأتي إجابة سورة القمر التي أرجأنا الحديث عنها، للسبب نفسه، فنرى نوحًا يقول كما حكى الله عنه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

---

(١) انظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي، ٢٤/ ١٥٤.

معنى الإجابة:

دعا نوح ربه قائلًا: إني قد غلبني قومي، فلم يسمعوا مني، ولم يأبهوا بنصحي، فانتقم لي، ويبدو أيضًا أنَّ المراد إهلاكهم.

من هذا العرض نستطيع أن نقول:

إن إجابة نوح في سورة الشعراء، وسورة المؤمنون، وسورة القمر. تفيد أن نوحًا دعا الله أن ينزل العذاب على قومه، نرى ذلك واضحًا في كل سورة، ولكن مع هذا، فإننا نرى اختلافًا، وإضافات، فنرى سورة الشعراء، وسورة المؤمنون، تكشف كل واحدة منهما السبب الذي من أجله دعا نوح على قومه، فتقول سورة المؤمنون على لسان نوح ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، فالمعنى: رب انصرني بسبب تكذيبهم، والمراد بقوله ﴿ٱنصُرۡنِي﴾، إنزال العقوبة بهم.

ويقول نوح عليه السلام في سورة الشعراء: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ﴾، فهذا القول الصادر من نوح، يظهر السبب الذي من أجله يدعو عليهم، قبل أن يدعو عليهم بقوله بعد ذلك: ﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾، ونرى سورة القمر لا يظهر فيها ذلك السبب فيقول نوح فيها: ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾، والمعنى: غلبني قومي فلم يسمعوا مني ولم يأبهوا بنصحي، ويقول: الفخر الرازي المعنى: «إني مغلوب بحكم البشرية لم أعد أتحمل، ثم بين أنَّ التحمل يبقى في نفس النبي ما دام الإيمان محتملًا، فإذا لم يبق هذا الاحتمال، ضاع وتبدد احتمال النفس».

- أما إجابة سورة هود، فنراها على عكس هذه الإجابات الثلاث؛ حيث نرى فيها أنَّ القوم هم الذين طلبوا العذاب فقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وأنَّ نوحًا فوض الأمر في ذلك إلى الله فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾.

ويبدو أنَّ نوحًا في سورة هود لم يكن يئس من إيمانهم، وإنما كان يتوقع منهم الإيمان، ومن هنا لم يطلب العذاب، بل طلبه قومه، إنهاء للمناقشة، وإغلاقًا لبابها، وعندما طلب القوم ذلك، فوض الأمر إلى الله.

الحديث عن السفينة وكيف صنعها نوح، وعن العذاب والنجاة:

إنَّ الحديث عن الفلك وكيف صنعها نوح؟ لا نراه إلا في سورة هود، وسورة المؤمنون، ففي سورة هود يقول الله سبحانه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٧-٣٩].

معنى الآيات:

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ (اصنع الفلك الذي سننجيك ومن آمن معك فيه)(١)، حال كونك محفوظًا بعنايتنا، معلّمًا بوحينا كيف تصنعه، فلا يعرض لك خطأ وأنت تصنعه.

---

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١٢/ ٦٢.

والتعبير بالعين الواحدة يفيد العناية، والتعبير بالأعين يفيد المبالغة فيها. هكذا يدل كلام العرب، وقد جاء القرآن بذلك، فقال سبحانه لموسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩]، وقال لمحمد ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ ولا تراجعني في أمرهم، فتطلب دفع العذاب عنهم، فقد حقت عليهم كلمة العذاب وقضي عليهم بالإغراق.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ يصنع الفلك كما أمر[١].

﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ﴾ كلما مر عليه جماعة «استهزأوا به وضحكوا منه؛ لظنهم أنه مصاب بالهوس والجنون ... روي أنهم كانوا يسألونه عما يصنع، فيجيبهم أنه يصنع بيتًا يجرى على الماء، ولم يكن هذا معروفًا ولا متصورًا، وقل أن يسبق أحد أهل عصره بما هو فوق عقولهم ومداركهم، من قول أو عمل إلا سخروا منه قبل أن يتم له النجاح»[٢].

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ إذا كنتم تستهزئون بنا؛ لأنكم ترون عملًا لا تفهمونه ولا تفهمون فائدته، (فإنا نسخر منكم اليوم لجهلكم، ونسخر منكم غدًا لما يحل عليكم)[٣].

---

(١) انظر روح المعاني، للآلوسي، ١٢/ ٥٠.

(٢) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١٢/ ٦٢.

(٣) نفس المصدر بتصرف.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩].

فسوف تعلمون من يأتيه العذاب ويحل به «أنحن أم أنتم يوم ينكشف المستور عن المحذور».

وفي سورة المؤمنون، يقول سبحانه: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، وقد تقدم معناه.

ومع أنَّ الحديث عن السفينة وصنعها، لم يرد إلا في سورتي هود والمؤمنون، فإننا نرى أنَّ سورة هود تضيف كيف سارع نوح إلى تنفيذ أمر الله، ويظهر ذلك من قوله:

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾، وتضيف موقف القوم أثناء صنع نوح السفينة وكيف كان نوح يواجه هذه السخرية، ويظهر ذلك من قوله سبحانه: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨-٣٩]، وكل ذلك لا يستفاد من غيرهما.

والحديث عن السفينة يعتبر مقدمة للحديث عن النهاية، ونرى سورة هود تمهد لتلك المقدمة بتمهيد لا نراه في سورة المؤمنون، ولا في غيرها، وذلك حيث تقول: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]، والمعنى أنَّ الله سبحانه أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن أحد سوى من آمن، ثم نهاه في هذا الوحي أن لا يحزن على ما أصابه منهم في الماضي من التكذيب

والإيذاء والاستهزاء، فقد آن وقت الانتقام[١]، فالبؤس: الحزن، ومنه قول الشاعر:

وكم من خليل أوحميم رزئته ... فلم ابتئس والرزء فيه جليل[٢]

لكن متى كان هذا الوحي؟ هل كان قبل أن يدعو على القوم بالهلاك كما تقدم في كثير من السور؟ أو بعده؟

حاولنا أن نعرف إجابة لهذا السؤال ولكن المراجع ضنت به رغم كثرتها، وعلى كلٍّ فإننا نستطيع أن نقول: إنَّ ما دار بين نوح وقومه في سورة هود إنما وقع قبل ما دار بينه وبينهم في سورة المؤمنون، وسورة الشعراء، وسورة القمر، وقبل أن ييأس من إيمانهم، ولما يئس من إيمانهم ودعا عليهم وكرر دعاءه، أوحى الله إليه بذلك، ويبدو أن الله سبحانه أراد أن يكشف بهذا أنَّ نوحًا صادف يأسه قدر الله فيهم بعدم إيمانهم، يعني أن يأسه جاء في النهاية، لا قبل أوانه.

أما لماذا ذكرت هذه الآية في سورة هود، مع أن سياقها يناسب أي سورة دعا نوح فيها على قومه، ولا يناسب سورة هود التي طلب القوم فيها العذاب، ففوض نوح الأمر إلى الله بقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ [هود:٣٣].

-فهذا اعتراض- وإن كان في غير محله -إلا أنه يبدو أنَّ سورة هود جاء القصص الذي ذكر فيها بتفصيل أكثر من أي سورة أخرى ورد فيها هذا القصص، فناسب أن تذكر فيها.

---

(١) انظر روح المعاني، للآلوسي، ١٢/ ٤٩.

(٢) تفسير القرطبي ٩/ ٣٠.

يقول صاحب (أسرار ترتيب القرآن)، في مناسبة وضع سورة هود بعد سورة يونس:

«إنَّ سورة يونس ذكرت فيها قصة نوح مختصرة جدًّا، مجملة، فشرحت في هذه السورة وبسطت بما لم يبسطه في غيرها من السور، ولا في سورة الأعراف على طولها، ولا في سورة، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، التي أفردت لقصته»[1].

ويتكرر قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود:٣٧]، في السورتين، وهذا يدل على مدى رأفة نوح بقومه، فرغم أنَّ نوحًا عليه السلام دعا عليهم، وتكرر هذا الدعاء كثيرًا، فإننا نرى أنه لن يفرح بنزول العذاب بهم، بل سيحزن لمصيرهم، وقد تدفعه الشفقة عندما يعاين أمارات العذاب أن يدعو الله لهم، هذا ما يدل عليه النهي في أغلب ظني.

وقد يؤيد هذا أنَّ قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود:٣٧]، جاء في سورة المؤمنون بعد الحديث عن ظهور أمارات العذاب، فقد جاء بعد قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، ويأتي الحديث عن النهاية فنرى سورة الأعراف تقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ

(١) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ١٠٨، بتحقيق عبد القادر عطا.

﴿كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤]، ويظهر من الآية أنَّ القوم لم تؤثر فيهم دعوة نوح، فاستمروا على التكذيب، فاستحقوا عقاب الله، وكان العقاب الغرق، ونرى في الآية أنَّ الله سبحانه كشف عن سبب استحقاقهم للعقوبة وبين أنه للتكذيب مرتين، مرة في البداية ومرة في النهاية، ونرى في الآية أيضًا أنَّ الله سبحانه كشف عن سبب تكذيبهم فبين أنه عمى البصائر والقلوب.

ونرى سورة هود تقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٠ - ٤٤].

معنى الآيات:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾.. حتى إذا جاء وقت أمرنا بهلاكهم وفار وجه الأرض بالماء قلنا لنوح حينئذ: احمل في الفلك من كل نوع من الأحياء ذكر أو أنثى وتتفرق الأقوال حول قوله: ﴿مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [هود: ٤٠]، وتشيع

في الجو رائحة الإسرائيليات قوية. أما نحن فلا ندع الخيال يلعب بنا ويشتط حول النص، ونقول: إنَّ المراد: مما يملك نوح أن يمسك وأن يستصحب من الأحياء، وما وراء ذلك خبط عشواء).

﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أمر نوح أن يحمل في السفينة أهل بيته المؤمنين دون الكفار [١]، وأن يحمل المؤمنين من قومه.

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (لم يبين لنا الله ولا رسوله عددهم، فكل ما قاله المفسرون فيهم مردود لا دليل عليه)[٢].

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ هذا من كلام نوح عليه السلام، فقد أمرهم أن يركبوا السفينة، وأن يقولوا معه: بسم[٣] الله مجريها ومرساها، وهذا تعبير عن تسليمها للمشيئة في جريانها ورسوها، فهي في رعاية الله وحماه، وماذا يملك البشر من أمر الفلك في اللجة فضلًا عن الطوفان؟!

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ (هذا تصوير لحالها في جريها بهم كأنها حاضرة أمام القارئ أو السامع، أي تجرى في أثناء موج يشبه الجبال في علوه وارتفاعه و امتداده)[٤].

---

(١) أما غير أهل بيته، من الكفار فانهم يدخلون تحت قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

(٢) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١٢ / ٦٤، وانظر تفسير الطبري في الآية.

(٣) قوله: بسم. متعلق بقوله: ﴿ٱرْكَبُوا۟﴾، وهو حال من الواو والتقدير: اركبوا قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها. انظر: الكشاف، للزمخشري.

(٤) المنار، لمحمد رشيد رضا، ١٢/ ٦٥.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ يبدو أنَّ هذا النداء كان عند ركوب السفينة وقبل جريانها.

﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ (في مكان عزلة وانفراد دون أهله الذين ركبوا فيها ودون الكفار)[١].

﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يا بني اركب مع والدك ومع أهلك ومع المؤمنين، ولا تكن مع هؤلاء الذين قضى عليهم الله بالهلاك.

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣]، ظن الولد أنَّ الأمر أمر ماء يرتفع بكثرة المطر كالمعتاد، وأنه من الممكن أن يتقي هذا الماء بالصعود إلى مكان عال، فبين له الوالد أنَّ الأمر أمر انتقام لن ينجو منه إلا من رحم الله... ومن رحم الله هم: ركاب هذه السفينة[٢].

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ (وكان قد بدأ يرتفع أثناء هذا الحديث حتى حال بين الوالد وولده)[٣].

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ الهالكين.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ صدر الأمر الإلهي للسماء أن تكف عن المطر، وللأرض أن تبلع الماء الذي علاها، وفي الحال كفت السماء، وابتلعت الأرض الماء، فغاض ونضب،﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ نفذ القضاء، فأهلك القوم وذهبوا إلى غير رجعة.

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١٢/ ٦٦.

(٢) انظر: المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ استقرت عليه، (ويبدو أنَّ هذا الجبل قد غمره الماء ولم يرتفع فوقه إلا قليلًا، فلما بلغته السفينة كان الماء فوقه رقراقا وبدا ينقص ويغيض فاستوت عليه)(١).

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اتبعوا بالطرد من رحمة الله بعد هلاكهم، بسبب رسوخهم في الكفر، وتُخْتَمُ القصة بقوله سبحانه:

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ(٢) عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ(٣) وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

وفي سورة المؤمنون، يقول الله سبحانه في الحديث عن النهاية: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وقد علم مما قضى تفسير هذه الآية.

ثم يقول الله بعد ذلك: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨ – ٣٠].

ويبدو أنَّ الدعاءين صدرا من نوح عليه السلام بعد الدخول ووقت الاستواء، والعطف يؤيد هذا(٤)، ونوح عندما دعا بالدعاءين فإنما ينفذ أمر الله.

---

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١٢/ ٦٦.

(٢) السعة في الرزق.

(٣) على ذرية أمم ممن معك، أي على ذرية مؤمنة تتناسل من هؤلاء المؤمنين.

(٤) انظر روح المعاني، للآلوسي، ١٨/ ٢٨، ولفظ «منزل» بالضم: مصدر به، انظر: زاد المسير، لابن الجوزي، ٥/ ٤٧١.

• وتأتي سورة الشعراء فنراها تقول: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ
ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ
﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١١٩ - ١٢٢].

والمعنى واضح... وتتحدث سورة القمر عن هذه النهاية فتقول:
﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ
﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ
ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾[القمر: ١١ - ١٦].

المعنى:

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ السماء لا أبواب لها، ولكن التعبير يراد به غزارة المطر وكثرته، فلأنه كثير وغزير جعل كأنه نازل من أبواب[(١)].

﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة.

﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ التقى الماء المنهمر من السماء بالماء المتفجر من الأرض على أمر مقدر، فهما على اتفاق لتنفيذ هذا الأمر المقدر، طائعين للأمر، محققين للقدر[(٢)].

﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾ يفهم من قوله: ﴿ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾[(٣)]، أنها السفينة، فهو صفة يقوم مقام الموصوف، وينوب عنه، «وهذا من

---

(١) انظر البحر المحيط، لأبي حيان، ٨/ ١٩٧٧.

(٢) يقول البيضاوي في قوله: ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ والمعنى: (على أمر قدره الله تعالى وهو هلاك قوم نوح بالطوفان)، والماء: اسم جنس، والمراد ماء السماء، وماء الأرض.

(٣) الدسر: المسامير، جمع دسار.

فصيح الكلام وبديعه، ولو جمعت بين الصفة والموصوف لم يكن بالفصيح»[1].

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ تجرى محفوظة بعنايتنا.

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ «جزاء لنوح؛ لأنه نعمة كفروها، فإن كل نبي نعمة من الله ورحمة على أمته»[2].

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ تركنا هذه الفعلة عبرة، فهل من معتبر.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ استفهام تعظيم وتهويل لما حل بقومه من العذاب، فقد استأصل جميعهم وقطع دابرهم.

مما تقدم نستطيع أن نقول:

إنَّ سورة الأعراف وسورة الشعراء، قد عرضت كل منهما النهاية بإيجاز واختصار.

أما سورة هود والمؤمنون، فقد عرضت كل منهما مقدمة النهاية بشيء من التفصيل:

فنرى سورة هود تعرض أمر الله لنوح بأن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين، وأن يستصحب معه المؤمنين وحدهم، وتعرض سورة المؤمنون هذا أيضًا، ويظهر ذلك في سورة هود من قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ

(١) البحر المحيط، لأبي حيان، ٨/ ١٧٧.

(٢) البيضاوي، ٢/ ٢٤٦.

عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ [هود: ٤٠]، أما في سورة «المؤمنون» فيظهر من قوله جل وعلا: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ [المؤمنون:٢٧].

ومع هذا الاتفاق، فإننا نرى اختلافًا في العرض، وأظهر هذا الاختلاف ما وقع بين قوله سبحانه في سورة هود: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ وبين قوله في سورة المؤمنون: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾.

ولعل السر في هذا التغاير والاختلاف، أنَّ سورة هود جاءت الأوامر فيها مفصلة، جاء الأمر بالحمل على حدة، وبالركوب على حدة، وبالهبوط على حدة، أما سورة المؤمنون، فلم يأت فيها إلا أمر واحد، هو قوله: ﴿ ٱسْلُكْ ﴾، فجيء به بلفظ مجمل يتضمن الحمل والركوب؛ وذلك لأن معناه: (ادخل)، والإدخال يتضمن الركوب، ولأن سورة هود عرضت قصة نوح بتفصيل، ناسب ذلك أن تأتي الأوامر فيها مفصلة، ومن بينها الأمر بالحمل الذي لا يقتضي ولا يتضمن سوى الحمل، وناسب أن يأتي في سورة المؤمنون أمر مجمل يتضمن الحمل والركوب؛ حيث إنها قد عرضت القصة بإجمال بالنسبة إلى سورة هود.

ونرى بعد ذلك في سورتي هود والمؤمنون أثناء الحديث عن مقدمة النهاية إضافات تحملها كل سورة.

فنرى سورة هود تضيف أمر نوح لقومه بالركوب، وأمره لهم بأن يقولوا: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾، تسليمًا للمشيئة في جريانها ورسوها، ولا يبين النص القرآني، هل صدر هذا الأمر من نوح تنفيذًا لأمر الله سبحانه، أو هو أمر أنشأه نوح من نفسه، تعبيرًا عن هذا التسليم ؟ وإنما الذي يبينه أنه أمر من نوح.

وتضيف قبل هذا أنَّ عدد المؤمنين به قليل، ومن هنا فلا داعي للتخبط في تحديد هذا العدد، ويظهر ذلك من قوله سبحانه: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ٤٠].

ونرى سورة المؤمنون تضيف أمر الله لنوح بحمد الله على نعمة التنجية، وأمره له بالدعاء أن ينزله منزلًا مباركًا.

وتنتهي القصة في سورة المؤمنون، ولا نرى فيها حديثًا عن العذاب ونهاية الكافرين إلا بإشارات تفهم بالفحوى، وذلك مثل ما جاء في قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

فالأمر بالحمد على النجاة منهم، يفهم منه أنه أملكهم، ويدل على هذا قوله سبحانه في آية أخرى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

ومثل ما جاء في التعقيب على القصة، وهو قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠]، فاسم الإشارة مشار به،

إلى ما فعل بقوم نوح، وقوله: ﴿لَمُبْتَلِينَ﴾ معناه: المصيبين قوم نوح ببلاء عظيم.

أما سورة هود فلا تنتهي القصة فيها، بل نراها تكمل المقدمة، فتتحدث عن جريان السفينة وعن هيجان الأمواج، وعن انتهاء العذاب، ومن هنا فإننا نستطيع أن نقول: إنَّ سورة هود أضافت: تصوير جريان السفينة بالمؤمنين في مياه هائجة مضطربة أمواجها كالجبال، واقرأ قول الله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢].

وأضافت رؤيةَ نوحٍ ولدَه، والحوار الذي نشأ بينهما، ومصير الولد، ويظهر ذلك من قوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢ – ٤٣].

وأضافت نهاية العذاب وكيف أنهاه الله بكلمة، واقرأ قول الله في ذلك ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [هود: ٤٤].

وأضافت أين استقرت السفينة، ويظهر ذلك من قوله سبحانه:

﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ وأضافت أنَّ نوحًا لم يهبط من السفينة إلا بأمر الله، وأنه هبط مصحوبًا بسلامة الله وبركاته.

وأضافت استشفاع نوح في ابنه الذي تخلف عن السفينة، وحال بينهما الموج[١]، فكان من المغرقين، ويصور ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٥- ٤٧].

وهذه الآيات تتعلق بمسألة فرعية من قصة نوح لا من صلب القصة. وهي تظهر عدل الله، فلا محاباة ولا خواطر عنده سبحانه، وتظهر جواز الخطأ في اجتهاد الأنبياء[٢].

ولعلك على ذكر من أنَّ سورة هود هي السورة الوحيدة التي عرضت قصة نوح بتفصيل أكثر من أي سورة أخرى ومن هنا جمعت هذه الإضافات كلها، ولعلك على ذكر أيضًا من السر في ذلك.

---

(١) هذا تفسير لـ(نادى)، أي فكان نداؤه أن قال: يا رب إنَّ ابني من أهلي الذين وعدتني بنجاتهم؛ إذ أمرتني بحملهم في السفينة، وإنَّ وعدك حق لا يتخلف، ويبدو أنَّ هذا الدعاء وقع بعد المحاورة وقبل أن يحول بينهما الموج، وكان هدف نوح بهذا الدعاء أن ينجي ولده الذي تخلف عن السفينة. انظر: تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١٢/ ٧٠.

(٢) ومن هنا فإنها تتصل بالقصة من ناحية أنها تتعلق بالعقائد، ولقد بين صاحب المنار أنَّ الترتيب يقتضي أن تجعل هذه الآيات بعد الحوار بين نوح وولده، ولكن الترتيب القرآني عرض آية ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾ [هود: ٤٤]، قبل هذه الآيات؛ لأنها تتصل بالآية التي قبلها اتصالا وثيقًا حيث إنَّ الآية التي قبلها تصور نكبة الطوفان، وهي تبين كيف أنهى الله هذا العذاب بكلمتين وجيزتين من كلمات التكوين الإلهي - انظر تفسير المنار ١٢/ ٦٧.

• وتأتي سورة القمر فتضيف كيف حدث الطوفان؟ وتصور ذلك تصويرًا يعجز القلم عن وصفه، ولنقرأ قول الله في سورة القمر: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١١ – ١٤].

ألا تشعر معي بالعظمة والروعة رغم الإيجاز والاختصار، يقول صاحب المنار في التعليق على هذه الآيات: وإنه لوصف وجيز في أعلى مراقي البلاغة والتأثير، ما أفظع هذا المنظر، ما أشد هوله، ما أعظم روعته، ماء ينهمر من آفاق السماء انهمارًا، وأرض تتفجر عيونًا خوارة فتفيض مدرارًا، ماء ثجاج، يصير بحرًا ذا أمواج، خفيت من تحته الأرض بجبالها، وخفيت من فوقه السماء بشمسها وكواكبها، وكانت عليه السفينة كما كان عرش الله على الماء في بدء التكوين، كأن ملك الله الأرضي قد انحصر فيها...[1].

وأخيرًا نقول:

إذا كانت سورة هود قد صورت نكبة الطوفان بالحوار الذي جرى بين نوح وولده، وصورت نهاية هذا الطوفان، فإن سورة القمر قد انفردت بتصوير كيفية حدوث هذا الطوفان بآياتها المعروفة، لا يشاركها في ذلك سورة أخرى.

وفي النهاية تأتي سورة نوح التي أرجأنا الحديث عنها إلى أن يتم عرض كل السور.

---

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١٢/ ٦٧.

فنرى أنَّ نوحًا بعد أن دعا قومه إلى الله، وخوفهم عاقبة الإصرار على الكفر والجحود، يقدم حسابه لربه الذي كلفه هذا الواجب وذلك الجهد الثقيل، وربه يعلم، وهو يعرف أنه يعلم، ولكنها شكوى القلب المتعب في نهاية المطاف، إلى الجهة الوحيدة التي يشكو إليها الأنبياء والرسل والمؤمنون، ونوح بهذا يسترجع الذكريات المريرة الأليمة، وما أكثر الذكريات المريرة الأليمة لألف سنة إلا خمسين عامًا...

ونرى نوحًا عليه السلام في شكواه يبين أنه اجتهد في دعوته، فدعا إلى الله في كل وقت وعلى كل حال، ولكن الموقف لم يتغير، وفي ذلك يقول نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥ – ٦].

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح:٧-٩].

ثم يبين نوح أنه استعمل الترغيب، ولكن الموقف لم يتغير أيضًا، وفي ذلك يقول:

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

ثم يبين أنه استعمل أسلوب الإقناع، ولكن الموقف ما زال كما هو متجمدًا، وفي ذلك يقول: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، والمعنى: «ما لكم لا تكونون على حالٍ تأملون فيها تعظيم الله إياكم في دار الثواب»

والحال التي يأملون فيها تعظيم الله إياهم في دار الثواب، إنما هي الإيمان، فكأنه يقول لهم: ما لكم لا تؤمنون بالله ؟

ثم يقدم مجموعة من الأدلة على صحة هذه الدعوى لإقناعهم، فيقول: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، وهي جملة في موضع الحال، وتقدير الكلام على هذا: ما لكم لا تؤمنون بالله والحال هذه، وهي حال موجهة للإيمان [1].

ثم يقدم الدليل الثاني فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥- ١٦].

ثم يقدم الدليل الثالث فيقول: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧- ١٨].

وأخيرًا يقدم الدليل الرابع فيقول: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩- ٢٠].

وبعد هذا الأسلوب المتنوع يكشف نوح عن تجمد الموقف، ويبين أنَّ القوم قد اتبعوا القيادات الضالة الذين أغراهم المال والولد بالضلال، فيقول: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

---

(١) انظر الكشاف، للزمخشري، والفخر الرازي، وقد رفض الفخر الرازي أن يكون الرجاء بمعنى الخوف، وهذا الرفض يناسب السياق.

ثم بين نوح أنَّ هذه القيادات كانت تحرض الأتباع على الكفر والضلال فيقول: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح: ٢٢- ٢٣].

ثم بين نتيجة هذا التحريض بقوله: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ [نوح: ٢٤].

- وبعد أن اقتنع نوح أنه لا خير يرجى من ورائهم دعا على الفريقين أن لا يصل إليهم الهدى، وأن يزدادوا ضلالًا على ضلالهم فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾ [نوح: ٢٤].

وقبل أن يعرض القرآن بقية الدعاء الصادر من نوح عليه السلام يعرض نهاية هؤلاء، فيقول: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نوح: ٢٥]، والتعقيب بالفاء مقصود هنا؛ لأن إدخالهم النار موصول بإغراقهم. والفاصل الزمني القصير كأنه غير موجود؛ لأنه في موازين الله لا يحسب شيئًا فالترتيب مع التعقيب كائن بين إغراقهم في الأرض وإدخالهم النار يوم القيامة، وقد يكون هو عذاب القبر في الفترة القصيرة بين الدنيا والآخرة.

ثم يقول النص القرآني: ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ [نوح:٢٥]، لا بنون، ولا مال، ولا سلطان، ولا أولياء من الآلهة المدعاة.

ويكمل السياق بقية الدعاء بعد ذلك فيقول: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح: ٢٦- ٢٧].

ثم تختم السورة بهذا الدعاء الخاشع: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: ٢٨].

من هذا العرض السريع نستطيع أن نقول:

إنَّ سورة نوح قد أضافت بيان اجتهاد نوح في دعوته بتفصيل، ويظهر ذلك من قوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥، ٦]، ومن قوله: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]، فالتعبير بلفظ ﴿كُلَّمَا﴾، يفيد تكرار هذه الصورة، وتكرار الدعوة، بل يفيد كثرة التكرار[1] ومن قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٨- ٩].

وإنما قلنا، «بتفصيل»؛ لأن سورة يونس، وهي من السور التي عرضت قصة نوح بإيجاز، يظهر ذلك منها، ولكن بإيجاز أيضا، فقد قال نوح فيها: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

ووجه الاستدلال أنَّ قوله ﴿كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾[2]، معناه: شق عليكم إقامتي مدة طويلة أدعو فيها إلى الله، وهذا يفيد الاجتهاد في الدعوة ولكن

(١) البحر المحيط، لأبي حيان، بتصرف ٨/ ٣٣٨.

(٢) مقامي: مصدر ميمي بمعنى الإقامة.

بإيجاز كما قلنا؛ حيث لم يفصح في هذا القول عن الدعوة ليلًا ونهارًا، ولا عن الجهر، ولا عن المزاوجة بين السر والجهر. كما جاء في سورة نوح.

وأضافت أنَّ نوحًا استعمل أسلوب الترغيب والإقناع.

ويتمثل الترغيب في أنه قدم لهم مقابلًا ماديًّا جزاء إيمانهم، ويظهر ذلك من قوله سبحانه على لسانه ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠- ١٢].

ويتمثل الإقناع في الأدلة الأربعة التي قدمها نوح تدليلًا على قضية الإيمان التي تمثلت في قوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، وقد تقدمت الإشارة إلى هذه الأدلة.

- إذا كانت سورة المؤمنون قد كشفت أنَّ الأشراف حاولوا إضلال العامة وهذا على أساس أنَّ المحاورة التي دارت هناك إنما دارت بين الأشراف والعامة، والتي يقول الله فيها: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٤- ٢٥].

إذا كان هذا كذلك، فإن سورة نوح قد أضافت حديثًا جديدًا جرى بين الأشراف والعامة، وحاول به الأشراف إضلال العامة وصدهم عن نوح، ويظهر ذلك من قول الله على لسان نوح:

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٢، ٢٣]، بل وتضيف فوق هذا نتيجة هذه المحاولة، وأنَّ الأشراف نجحوا في تحقيق هدفهم، ويظهر ذلك من قوله سبحانه: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١]، ومن قوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٤].

ونكتفي بهذا، وهناك أمور أو إضافات أخرى لا تخفى على القارئ.

- ولقد ذكرت قصة نوح بإيجاز في سورة يونس، وفي سورة الأنبياء، وفي سورة الفرقان، وفي سورة العنكبوت، وفي سورة الصافات، وفي سورة الذاريات، وفي سورة النجم، وقد مرت آيات كل سورة.

ولو تأملت القصة في كل سورة من هذه السور لوجدت اختلافًا في الأسلوب وإضافات جديدة في بعضها، فسبحان من هذا كلامه، وسبحان من قال في حق هذا الكلام: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

قصة هود عليه السلام

بين يدي القصة

لقد تكررت هذه القصة في كثير من سور القرآن، وكانت تعرض بتفصيل أحيانًا، وبإيجاز أحيانًا أخرى.

ومن المواضع التي ذكرت فيها القصة بتفصيل:

سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة المؤمنون، وسورة الشعراء، سورة الأحقاف.

وتتلخص هذه القصة في تلك المواضع في المحاورة التي دارت بين هود وبين قومه، وفي الحديث عن العذاب والنجاة.

وكانت المحاورة تطول أحيانًا فيظهر فيها النداء الأول الذي وجهه هود لقومه، وإجابة القوم على هذا النداء، ثم رد هود ورد القوم مرة ثانية، وهكذا...

وقد تقصر فلا يظهر فيها إلا نداء وإجابة.

وقبل المحاورة وقبل الحديث عن العذاب والنجاة -وهما العنصران الرئيسان للقصة- نرى افتتاحًا يمكن أن يستفاد منه أنَّ الله سبحانه أرسل هودًا إلى قومه عاد، وأنَّ هودًا كانت تربطه بقومه أخوَّة النسب.

وسنتتبع القصة في هذه النقاط، وفي تلك المواضع؛ لنرى ما هي الإضافات التي يحملها كل عرض؟ حتى يتضح أنَّ هذا التكرار إعجاز لا يستطيعه بشر.

قصة هود عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا
لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ
ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ
قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى
فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى
مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥- ٧٢].

وقال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ
ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟

يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ
﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ
مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى
وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ
أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ
عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ
عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ
قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٠- ٦٠].

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ
ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ
وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ
أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾
إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا
قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٤١].

قـال الله تعالـى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ
تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي
أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا
إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشـعراء: ١٢٣ -١٤٠].

قـال الله تعالـى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا
قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ [فصلـت: ١٥- ١٦].

قـال الله تعالـى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا
لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ
وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ
أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ
كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ

مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢١ - ٢٦].

قال الله تعالى: ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات: ٤١ – ٤٢].

قال الله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر: ١٨ – ٢٠].

قال الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦ – ٨].

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [الفجر: ٦ – ٨].

افتتاح القصة

نستطيع أن نقول الآن: إن السور التي تناولت القصة بتفصيل يمكن أنَّ يؤخذ من افتتاحها: أنَّ الله سبحانه أرسل هودا إلى قومه عاد، وأن هودًا كانت تربطه بقومه أخوَّة النسب...

لكن التعبير عن ذلك جاء مختلفًا، وحمل الاختلاف إضافات وفوائد: فافتتاح سورة الأعراف وسورة هود، يحدد اسم القوم واسم الرسول الذي أرسل إليهم، والعلاقة التي تربط بين الرسول وبين القوم، فتقول كل منهما: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥، هود: ٥٠].

- وتأتي سورة المؤمنون فلا تذكر اسم المرسَل ولا المرسَل إليهم وتترك السياق يحدد ذلك، ولكنها مع هذا تضيف أنَّ هذا الرسول نشأ بين القوم، ومن هنا فإننا نستطيع أن نقول: إنَّ هودًا كانت تربطه بقومه أخوة النسب كما يؤخذ من غير سورة المؤمنون، وأنه أيضًا لم يَتَرَبَّ بعيدًا عنهم، وإنما تربى بينهم وفي وسطهم، كما يؤخذ من سورة المؤمنون، ولنقرأ قول الله في افتتاح القصة في سورة المؤمنون: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٣٢]، فقد عبر القرآن بلفظ، ﴿فِيهِمْ﴾ دون لفظ «إليهم» - كما جاء في غير هذه السورة -؛ للإيذان من أول الأمر أنَّ من أُرسل إليهم لم يأتهم من غير مكانهم، وإنما نشأ بين أظهُرهم.

وقد يقول قائل: لـمَ لا يكون الرسول في سورة المؤمنون غير هود؟ وإذا أردنا التحديد فلم لا يكون هو صالح عليه السلام؟ ويؤيد هذا أن الله سبحانه يقول في آخر القصة في نفس السورة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ [المؤمنون: ٤١]، فالمعروف أنَّ قوم صالح هم الذين أُهلكوا بالصيحة، أما قوم عاد فقد أُهلكوا بالريح.

ويجاب بأنَّ القرآن قد بين أنَّ الترتيب الزمني لقوم هود بعد قوم نوح، فقد قال سبحانه في سورة الأعراف حكاية عن هود: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

كذلك نرى في كثير من سور القرآن أنَّ قصة هود تذكر بعد قصة نوح، فسورة المؤمنون على هذا النسق إذن.

ومن هنا فإننا نرجح أنَّ المراد بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١]: عاد، ونُرجح أنَّ المراد بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٢] هود.. استنتاجًا مما ذكرنا.

أما الاستدلال بقول الله سبحانه في آخر القصة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ [المؤمنون: ٤١] على أن المراد بالقوم: قوم صالح، فهذا يجاب عنه: بأن المراد بالصيحة: العقوبة الهائلة، كما قال الشاعر:

صاح الزمان بآل برمك صيحة خرُّوا لشدتها على الأذقان[1]

أما افتتاح سورة الشعراء فيُبرز نهاية القصة قبل البدء فيها، ثم يبين وحدة الرسل، وأن من كذب رسولًا فقد كذب المرسلين جميعًا، وهذا

(١) انظر روح المعاني، للآلوسي، ١٨/٢٨، ٣٣.

ما لا يستفاد من غيره من السور التي تناولت القصة بتفصيل، يقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، وعاد لم يرسل إليها إلا رسول واحد هو: هود.

- وتأتي سورة الأحقاف فلا تذكر اسم الرسول وتكتفي ببيان القوم، وصلة القرابة بين الرسول وبين القوم، ولكنها -مع هذا- تضيف جديدًا، فتحدد المكان الذي سكنته عاد ووجَّه رسولهم منه دعوته، وأنه الأحقاف [1]، وهذا ما لا يستفاد من غير هذا الافتتاح.

ولقد عبَّر افتتاح سورة الأحقاف للقصة عن دعوة هود: **بالإنذار مخالفًا بذاك غيره**، يقول سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١]، ولعل السبب أن هودًا بدأ كلامه في كل عرض بصيغة الأمر[2]، أما هنا فقد بدأه بصيغة النهي، والنهي عن الشيء إنذار عن مضرتَّه -كما يقول صاحب روح المعاني[3]، يعني أن النهي عن الشيء يحمل إنذارًا وتحذيرًا من مضاره، فإذا قلت لصاحبك مثلًا: لا تشرب الخمر، فهذا النهي يتضمن إنذارًا بأضرار الخمر.

ولنستعرض بدء كلام هود لقومه في غير سورة الأحقاف:

- من سورة الأعراف يقول الله سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

---

(١) يقع شمالي حضرموت، ويقال: إنه الآن رمل ليس به أنيس.

(٢) بدأ هود كلامه في سورة الشعراء بصيغة الاستفهام فقال: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، والاستفهام هنا يحمل توبيخًا على عدم التقوى، فكأنه يطالبهم بها.

(٣) انظر روح المعاني، للآلوسي، ح ٢٦/ ٢٥.

- من سورة هود يقول سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ [هود: ٥٠].

- من سورة المؤمنون يقول سبحانه: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣١ - ٣٢].

- من سورة الشعراء يقول سبحانه: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء: ١٢٣ - ١٢٦].

- أما سورة الأحقاف فيقول سبحانه فيها: ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحقاف: ٢١]، فجاء بدء الكلام بصيغة النهي، ومن هنا التعبير بالإنذار.

وتضيف سورة الأحقاف أيضًا: اتفاق الرسل في الدعوة إلى التوحيد.

وقد أفاد ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ ﴾ فهذه الجملة اعتراض بين قوله: ﴿ أَنذَرَ ﴾، وقوله: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾، ومعنى الآية حتى الجملة الأخيرة: «واذكر زمان إنذار هود قومه بما أنذر به الرسل قبله وبعده، وهو ألا تبعدوا إلا الله، تنبيها على أنه إنذار ثابت قديمًا وحديثًا اتفقت عليه الرسل عليهم السلام عن آخرهم»[1].

---

(١) روح المعاني، للآلوسي، ببعض تصرف ٢٦/ ٣٥، ويلاحظ أنَّ الجملة اعتراض بين المفسَّر والمفسِّر على أساس أن النهي من قبيل الإنذار.

النداء الأول:

- قال هود عليه السلام في ندائه الأول الذي وجهه لقومه في سورة الأعراف: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

- وقال في نفس النداء في سورة هود: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٠ - ٥٢].

- وقال في سورة المؤمنون: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٢].

- وقال في سورة الشعراء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٢٤ - ١٣٥].

- وقال في سورة الأحقاق: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١].

- ومن هذا العرض يتضح لنا أنَّ نداء هود جاء مختصرًا في سورة الأعراف، وسورة المؤمنون وسورة الأحقاف، ويستفاد منه: أنَّ هودًا دعا قومه إلى التوحيد، وخوَّفهم من عاقبة الإصرار على الكفر والجحود.

ولا نكاد نرى اختلافًا في هذه النتيجة، ولكننا نرى اختلافًا في العرض:

- ففي سورة الأعراف وسورة المؤمنون: تأتي الدعوة إلى التوحيد في النداء بصيغة الأمر.
- وفي سورة الأحقاف: تأتي الدعوة إلى التوحيد في النداء بصيغة النهي.
- وفي سورة الأعراف وسورة المؤمنون لا يصرح في النداء بالمخوَّف منه.
- وفي سورة الأحقاف يضرج فيه بذلك، بل ويفصح النداء عن مدى درجة العذاب، فهو عذاب هائل؛ لأنه قد وصف اليوم بالعظم، واليوم لم يوصف بالعظم إلا لنزول العذاب فيه، وإذا كان اليوم قد وصف بالعظم؛ لنزول العذاب فيه، فما بالك بالعذاب نفسه، وفي الوقت نفسه نرى هودًا يظهر هذا التهديد في صورة نصح من رحيم يخاف عليهم سوء المصير.
- وتأتي سورة هود فيظهر في النداء إضافات جديدة، فنرى ذمًّا وتوبيخًا، فقد قال هود في ندائه في هذه السورة -بعد الدعوة إلى التوحيد: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]؛ أي ما أنتم في اتخاذكم إلهًا غير الله إلا كاذبون.

ونرى هودًا **بعد ذلك** يبادر قومه فيوضح لهم أنها دعوة خالصة ونصيحة ممحضة، فليس له من ورائها هدف، وما يطلب على النصح

والهداية أجرًا، إنما أجره على الله الذي خلقه فهو به كفيل، فيقول: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾ [هود: ٥١].

وفي التعبير بقوله: ﴿فَطَرَنِيٓۚ﴾، تنبيه على أنَّ أصنامهم التي يعكفون على عبادتها لا قدرة لها ولا حيلة، ولا تملك من صفات الألوهية ما يرشحها لهذا المنصب.

إنَّ الخالق الحقيقي هو الذي يستحق هذه العبادة، ثم يقول: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، وكأنه يقول لهم: «أفلا يعقلون استحالة الألوهية لغير الخالق، أو: أفلا يعقلون نصيحة من لا يطلب على نصيحته أجرًا إلا من الله تعالى- وهو ثواب الآخرة، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك»[1].

ثم نرى هودًا يرغِّبهم في الإيمان ويستميلهم إليه بأمور مادية فيقول: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: ٥٢][2].

ويختم هود نداءه بقوله: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾، أي لا تتولَّوا مرتكبين لجريمة التكذيب.

إذن فنداء سورة هود قد أضاف أمورًا لا توجد في السور الثلاث السابقة.

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان، ٥/ ٢٣٢.

(٢) ويبدو أنَّ هودًا رغَّبهم بزيادة المطر؛ لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين فكانوا أحوج شيء إلى الماء، وقيَّد المطر بكونه (مدرارًا)؛ ليشعر بأنه ليس مدمرًا أو مهلكًا.

أضاف وصف هود للقوم بالكذب، ويظهر ذلك من قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾، وقد تكرر هذا الوصف في نهاية النداء، فقد قال لهم: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾.

ويبدو أنَّ الفرق بين الوصف الأول والثاني: أنَّ الأول وصف للواقع، والثاني معلق على توليهم وإعراضهم.

وأضاف إنَّ هودًا لا يبتغي عرضًا ماديًّا من وراء دعوته، وإنما يطلب الأجر من الله وحده.

وأضاف ترغيب هود للقوم في الإيمان بأمور مادية.

- ونأتي إلى نداء سورة الشعراء، فنرى هودًا يخوِّف القوم من عاقبة الأضرار على الكفر والجحود، فقد قال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، يعني: ألا تخافون من عقاب الله إن لم تؤمنوا.

ونرى هودًا يقدم للقوم نفسه فيقول: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي أني رسول من عند الله أمين في نصحه لا يكذبكم ولا يخدعكم، أو أمين فيما ينقله عن الله لا يزيد فيه ولا ينقص منه».

ونرى هودًا يعود إلى المطالبة بالتقوى ويحدد المتقى هذه المرة، حيث يضيف التقوى إلى الله ويبدو أن المراد عقابه -فيقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

ويبدو أنَّ قول الله سبحانه على لسان هود: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ مترتب عن قوله ﷻ على لسانه أيضًا: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، فالفاء

لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وكأنه يقول لهم: إذا كنت رسولًا لا أكذب ولا أخدع، ولا أزيد ولا أنقص شيئًا مما كلفت به، فيجب عليكم أن تتقوا الله الذي أرسلني، وأن تطيعوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه.

وترى هودًا يبين أيضًا أنه لا يطلب أجرًا على دعوته فأجره على الله فيقول: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

ونرى هودًا بعد ذلك يذم سلوكهم فيقول: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨] يعني: «أتبنون من كل مكان مرتفع أبنية ضخمة لا للسكن، بل للسخرية من المارة»[1].

ويقول: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩]، وللمفسرين آراء في لفظ ﴿مَصَانِعَ﴾ أي في تفسيره، لكن كل هذه الآراء -في أغلب ظني- بعيدة.

ونقول: لم لا يكون للقوم مصانع حقيقة؟ ولم لا يكونون قد برعوا في نوع معين من الصناعات؟

إنَّ الأولى تفسير اللفظ بهذا، ثم نحن في حِلٍّ من تعيين ما برعوا فيه.

أما قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ فمعناه: إنكم تعملون عمل من يرجو الخلود في الدنيا.

ثم يقول لهم: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]، أي: إذا أردتم البطش بطشكم بلا رأفة ولا رحمة.. هذا وصف لهم بالقوة والغلظة.

---

(١) روح المعاني، للآلوسي، بتصرف ١٩/ ١١٠.

ويعود هود إلى المطالبة بتقوى الله وطاعته هو، فيقول: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

ومرة رابعة يطالبهم بتقوى الله ويبين لهم أنَّ الله سبحانه حقيق أن يتقى، فقد أنعم عليهم بما يعرفون، فيقول: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الشعراء: ١٣٢].

ثم يفصِّل بعد الإجمال شيئًا من النعم التي أنعم الله بها عليهم فيقول: ﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء: ١٣٣ -١٣٤].

مما تقدم نستطيع أن نقول:

إنَّ نداء سورة الشعراء **قد أضاف أمورًا** ليست في السور الأربع السابقة:

أضاف: ذم هود لسلوك القوم وتوبيخهم عليه، ويظهر ذلك من قوله: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠].

ويستفاد من هذا التوبيخ: أنَّ القوم كانوا متكبرين لدرجة أن تحكم الكبر في سلوكهم، وأنهم كانوا يحبون الدنيا كثيرًا، ومن هنا فهم يبنون الأبنية الضخمة العالية من أجل العبث[1]، ويتخذون المصانع مباهاة ومفاخرة بتكاثر الأموال كأنهم لا يفارقون الدنيا ولا يزولون عنها، ويحاولون قهر الناس والبطش بهم من أجل الغلبة والسيطرة.. ومن يفعل ذلك فإنما يبتعد بنفسه عن حد العبودية.

(١) قال صاحب البحر المحيط: «وهذا مسلك من يحب العلو في الدنيا»

وإذا كان النداء الأول في سورة الأعراف، وسورة المؤمنون، وسورة الأحقاف، يظهر منه الدعوة إلى التوحيد بصريح العبارة، فإنَّ نداء سورة الشعراء لا يظهر منه ذلك صراحة، وإنما يستفاد ضمنًا من التوبيخ على عدم التقوى، ومن الأمر بالتقوى بعد ذلك وتكراره ثلاث مرات.

وإذا كان التهديد في نداء السور الثلاث قد اختلف عرضه، فإنَّ التهديد في سورة الشعراء قد جمع هذا الاختلاف كله، فقد طوى أولًا المخوَّف منه فقال: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، ثم صرح أخيرًا به، فبين أنه للعذاب، ثم كشف مدى درجته وشدته فقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وزادت سورة الشعراء في ندائها الأمر بالتقوى الذي تكرر ثلاث مرات، وهو تهديد أيضًا.

ولا تكاد نرى اتفاقًا بين نداء سورة هود، ونداء سورة الشعراء. إلا في نفي هود عن نفسه سؤال الأجر على دعوته، ومع هذا الاتفاق، فقد عرض هذا النفي في كل سورة من السورتين بأسلوب يختلف عن الآخر ويضيف جديدًا.

فقد قال سبحانه على لسان هود في سورة هود: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]، وقال سبحانه على لسان هود في سورة الشعراء: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

ونرى أنَّ هودًا صدَّر النفي في سورة هود بهذا النداء: ﴿يَـٰقَوۡمِ﴾ وهذا النداء يريد هود منه أن يذكرهم أنه ليس غريبًا عنهم، حتى يطمئنوا ويصدقوا.

ولا يوجد هذا النداء في سورة الشعراء ويختم هود النفي في سورة هود بهذا الإنكار والتوبيخ: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ **ولا يوجد مثله في سورة الشعراء.**

ونرى هودًا يضيف إلى الله سبحانه صفة الخلق في سورة هود، وصفة الربوبية في سورة الشعراء.. فيقول في سورة هود: ﴿فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، ويقول في سورة الشعراء: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧].

إجابة القوم:

- تتحدث سورة الأعراف عن إجابة القوم لهود فتقول: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَـٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

والمعنى: إنا لنراك خفيف العقل ضعيف الرأي، وإنا لنظنك من الكاذبين في دعوى الرسالة عن الله.

وتنكير السفاهة، للمبالغة، فكأنهم يقولون له: إنا لنراك في سفاهة تامة راسخة تحيط بك من كل جانب، وتحتوي عليك كما يحتوي الظرف على المظروف.

وحكمهم عليه بالسفاهة صدر عن اعتقاد باطل منهم؛ ولذلك عبروا عن حكمهم هذا: «بالرؤية، التي بمعنى الاعتقاد، أما حكمهم بالكذب على هود عليه السلام فقد صدر عن ظن، ولو قالوا إنهم يعتقدون ذلك لكانوا كاذبين على أنفسهم»[1].

---

(١) انظر في تفسير الآية: تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ٨/ ٤٩٦، والبحر المحيط، لأبي حيان ٤/ ٣٢٣.

● وتتحدث سورة هود عن هذه الإجابة فتقول: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ [هود: ٥٣ - ٥٤].

معنى الإجابة:

﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾«أي ما جئتنا بمعجزة تدل على صدقك، وقد كذبوا في ذلك كما كذبت قريش في قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾. [يونس: ٢٠].

وقد جاءهم رسول الله ﷺ بآيات كثيرة، فهود عليه السلام وغيره من الأنبياء لهم معجزات، وإن لم يعين لنا بعضها، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «**ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر**»[1].

﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾ [هود: ٥٣]، أي: بسبب قولك المجرد عن البينة فلفظة ﴿عَن﴾، للتعليل.

﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾: بمصدقين فيما جئت به.

ويقول «**صاحب روح المعاني**»، في بيان موقف هؤلاء القوم كما تصوره هذه الآية:

«وقد بالغوا في الإباء عن الإجابة، فأنكروا الدليل على نبوته عليه السلام، ثم قالوا مؤكدين لذلك: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣]، ثم كرروا ما دل عليه الكلام السابق من عدم إيمانهم بالجملة الاسمية مع زيادة الباء،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، ٦/ ١٨٢، حديث ٤٩٨.

وتقديم المسند إليه المفيد للتقوى؛ دلالة على أنهم لا يرجى منهم ذلك بوجه من الوجوه، وفي ذلك من الدلالة على الإقناط ما فيه»[1].

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤]، لقد خرجت على آلهتنا، وعصيتها وصدرت عن عبادتها، فأصابتك بجنون كان من جرائه هذا الهذيان الذي تقوله.

والتفكير في قوله: ﴿بِسُوٓءٍ﴾، للتقليل، كأنهم لم يصفوه بشدة الجنون وإنما بشيء منه، ويقوي هذا نسبة السوء إلى بعض الآلهة دون كلها.

ويستفاد أيضًا من هذه النسبة: تعظيم أمر آلهتهم وأنَّ البعض منها له من التأثير ماله.

- أما سورة المؤمنون فتتحدث عن الإجابة بقولها: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٣ – ٣٨].

المعنى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

---

(١) روح المعاني، للآلوسي، ١٢/ ٨١.

وصفت هذه الآية الأشراف بثلاث صفات من صفات الذم: وصفتهم بالكفر، ووصفتهم بتكذيب لقاء الآخرة - أى لقاء ما فيها من حساب وثواب وعقاب - ووصفتهم بالترف.

ثم بيَّنت أنَّ هؤلاء الأشراف احتجوا على نص رسالة هود ببشريته التي تماثل بشريتهم ولا تزيد عليها شيئًا.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤].

يبين الأشراف أنَّ من أطاع رسولًا تماثل بشريته بشريتهم، فقد خسر عقله وأصبح لا عقل له.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥].

ينكر الأشراف قضية البعث التي أوقفهم عليها رسولهم.

«والآية استئناف مسوق؛ لتقرير ما قبله من زجرهم عن اتباع الرسول بإنكار وقوع ما يدعوهم للإيمان به و استبعاده»[1].

وقوله: ﴿أَنَّكُمْ﴾، من قوله: ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾: تأكيد لقوله: ﴿أَنَّكُمْ﴾ الأولى، لطول الفصل بينه وبين خبره الذي هو قوله: ﴿مُّخْرَجُونَ﴾؛ وقوله: ﴿إِذَا﴾ ظرف متعلق به. أى: أيعدكم أنكم مخرجون من قبوركم أحياء كما كنتم أولًا إذا متم وكنتم ترابًا؟

---

(١) روح المعاني، للآلوسي، ١٨/ ٣٠.

﴿هَيْهَاتَ[1] هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا[2] الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٦ - ٣٧].

يعبر الأشراف عن مدى استبعادهم لهذه الحقيقة -حقيقة البعث الخطيرة- فيقولون إنَّ ما توعدون به بعيد بعيد، فليس لنا إلا هذه الحياة، وفيها نموت ونحيا، ثم لا بعث ولا حساب بعد ذلك..

وأرادوا بقولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾: يموت بعض ويولد بعض، أو أرادوا بالموت: العدم السابق على الوجود. فالعطف بالواو لا يقتضي الترتيب.

- وتتحدث سورة الشعراء عن هذه الإجابة فتقول: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ۝١٣٦ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣٧ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦ - ١٣٨].

معنى الإجابة:

- ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]؛ أي قالوا: سواء علينا وعظك وعدمه فلن نترك ما نحن عليه وجعلوا قوله وعظًا، إذ لم يعتقدوا صحة ما جاء به، وأنه كاذب فيما ادعاه.

---

(١) هيهات: اسم لبعُد، وفاعله مستتر فيه يرجع إلى التصديق، أو الوقوع، أو نحو ذلك، فكأنه قيل: بعُد التصديق، أو الوقوع. وهيهات الثانية: تكرار؛ لتأكيد البعد، والغالب في هذه الكلمة مجيئها مكررة.

(٢) قوله: (إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا) ، أصلة إن الحياة إلا حياتنا الدنيا، ثم وضع الضمير موضع الحياة؛ لأن الخبر يدل عليها ويبينها، فالضمير عائد على متأخر، وعوده كذلك جائز في صور؛ منها: إذا فسر بالخبر كما هنا ..انظر روح المعاني، للآلوسي، ١٨/ ٣١، ٣٢ .

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تعليل لعدم إيمانهم، والمعنى: ما هذا الذي تقوله وتدعيه إلا اختلاق الأولين من الكذبة قبلك[1]، أو ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا عادة الأولين الذين تقدمونا من الآباء وغيرهم، ونحن بهم مقتدون[2].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨]، ولن ينزل علينا العذاب الذي تخوفنا به من أجل أعمالنا.

- وفي سورة الأحقاف تظهر الإجابة على هذا الوضع: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

أظهر القوم أنَّ دعوته التي يحاول بها صرفهم عن آلهتهم لن تنجح. ويبدو أن هودًا كان يتوعدهم بالعذاب - إذا استمروا على كفرهم - ولهذا قالوا في استهتار وبلا مبالاة: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ من دعوة الرسالة.

وقفة مع الإجابة:

- إنَّ إجابة القوم في سورة الأعراف كانت اتهامًا لهود بخفة العقل والكذب.

ويستفاد من هذا الاتهام: رفضهم للتصديق به.

---

(١) انظر البحر المحيط، لأبي حيان، ٧/ ٣٤.

(٢) انظر روح المعاني، للآلوسي، ١٩/ ١١٢.

- أما إجابة سورة هود فيظهر فيها فوق الرفض المؤكد للتصديق بصريح العبارة - الذي سبق أن تحدثنا عنه - أنَّ القوم قد أنكروا معجزة هود، وأنهم قد اتهموه بشيء من الجنون، ثم ذكروا علة هذا الاتهام وأنه آلهتهم، ويستفاد من هذه العلة: مدى اعتقاد القوم في قدرة آلهتهم.

- وتأتي سورة المؤمنون، فيظهر فيها الرفض بحجة بشرية الرسول، وتكشف شيئًا من القضايا التي كان يدعو إليها هود - مع التوحيد - فتكشف أنه كان يدعوهم إلى الإيمان بحقيقة البعث، ويظهر فيها اتهام هود بالكذب.

- وتأتي سورة الشعراء فيظهر في إجابتها: رفض القوم التصديق، ووصفهم له بالكذب، وذلك قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ - على التفسير الأول - ويظهر فيها تكذيبهم لهود في وقوع العذاب الذي تَهَدَّدَهُمْ به، ويستفاد من هذا التكذيب: اتهام القوم لهود بالكذب، وذلك قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

- وتأتي سورة الأحقاف، فيظهر في إجابتها: رفض القوم التصديق، وذلك قولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢]، ويظهر فيها تكذيبهم لهود في وقوع العذاب الذي تهددهم به، وذلك قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فالتعبير بلفظ «﴿إن﴾ يفيد أنهم يرجحون جانب التكذيب على جانب التصديق، ويستفاد من هذا التكذيب: اتهام هود بالكذب.

من كل ما تقدم نستطيع أن نقول:

إنَّ كل سورة قد عرضت إجابة القوم عرضًا يضيف جديدًا..

فسورة الأعراف جمعت في إجابتها بين الاتهامات التي اتهم بها هود عليه السلام وجاءت موزعة على بقية الإجابات؛ وذلك لأن القوم قد اتهموا هودًا في سورة الأعراف بخفة العقل، وبالكذب، فقد قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[الأعراف: ٦٦]، ونرى هذين الاتهامين موزعَين على بقية إجابات السور المذكورة.

ففي سورة هود نرى القوم قد اتهموا هودًا بشيء من الجنون، ويظهر ذلك من قولهم ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[هود: ٥٤].

وفي سورة المؤمنون نراهم قد اتهموا هودًا بالكذب، ويظهر ذلك من قولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [المؤمنون: ٣٨].

وفي سورة الشعراء نرى هودًا قد اتهم بالكذب مرتين، مرة تصريحًا، ويظهر ذلك من قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧]، على أساس أنَّ المعنى: ما هذا الذي تقوله وتدعيه، إلا اختلاق الأولين من الكذبة قبلك، فأنت على مناهجهم.

ومرة تلميحًا، ويظهر ذلك من قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، وقد مر أنه يستفاد من هذا التكذيب: اتهام هود بالكذب.

وفي سورة الأحقاف نرى هودًا قد اتهم بالكذب تلميحًا، ويظهر ذلك من قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

ويلاحظ أيضًا أنَّ الاتهام الضمني الذي جاء في سورتي الشعراء والأحقاف، قد جاء في سورة الأعراف في آخر إجابة للقوم حيث قالوا كما حكى القرآن: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[الأعراف: ٧٠].

وفوق هذا زادت سورة الأعراف وصف القوم هودًا عليه السلام بالجنون التام لا بشيء منه كما جاء في سورة هود، وعلى هذا فالاتهام في سورة الأعراف أشد وأنكى من الاتهام في سورة هود، ودليل ذلك ما سبق أن قلناه من أنَّ التنكير في لفظ ﴿سَفَاهَةٍ﴾ للمبالغة، وأنَّ حكمهم هذا صدر عن اعتقاد منهم، ويفهم ذلك من تعبيرهم عن هذا الحكم بالرؤية.

أما التنكير الذي جاء في الاتهام الموجه إلى هود في سورة هود. والذي يمثله قولهم: ﴿بِسُوٓءٍ﴾، فإنه يفيد التقليل.

- وتأتي إجابة سورة هود، فتضيف: الحديث عن المعجزة، وأنَّ القوم قد أنكروها.

وتضيف أنَّ القوم قد ذكروا علة اتهام هود بشيء من الجنون.

وتضيف ما يمكن أن يستفاد من علة الاتهام، وقد سبق أن قلنا: إنَّ ما يمكن أن يستفاد من ذلك، مدى اعتقاد القوم في قدرة آلهتهم، ومدى تعظيمهم واحترامهم لهذه الآلهة.

- أما إجابة سورة المؤمنون فتضيف: الحديث عن بشرية الرسول، وما يلزم هذه البشرية - لتبقى نابضة بالحياة - من أكل وشرب.

وتضيف: مدى اعتقاد القوم أنَّ البشرية تنافي الرسالة، ومن هنا فطاعته إلغاء للعقل وتضييع له.

وتضيف: أنَّ هودًا دعا -مع التوحيد- إلى الإيمان بحقيقة البعث.

وقبل ذلك كله أضافت الإجابة: وصف الأشراف بصفتين هما: التكذيب بلقاء الآخرة، والترف.

وتشترك إجابة سورة المؤمنون مع إجابة سورة الأعراف في وصف الملأ بالصفة الثالثة وهي: الكفر، ومكانها في الآيتين الصدارة.

ولعل السر في إضافة سورة المؤمنون لصفة التكذيب بلقاء الآخرة: أنَّ القوم في هذه السورة لما أنكروا البعث في حديث طويل استغرق أكثر محاورتهم، سجل القرآن عليهم هذا الوصف في أول كلامه عنهم.

وقد يؤيد هذا أنَّ وصف القوم بالتكذيب بلقاء الآخرة يدخل في وصفهم بالكفر ضمنًا، ولكن القرآن أفرده؛ ليسجل عليهم المغالاة أيضًا.

أما السر في إضافة سورة المؤمنون لوصف الترف، فلعل القرآن أراد أن يسجل عليهم الخسة، حيث قابلوا الإحسان بالإساءة.

وتضيف إجابة سورة المؤمنون: أنَّ الأشراف تواصوا بالرفض -رفض النبوة، ورفض المبادئ، التي جاء بها ودعا إليها- فالمحاورة لم تدر

بين هود وبين القوم، وإنما دارت بين الأشراف بعضهم وبعض، ولقد استنتج المفسرون ذلك من الإتيان بواو العطف مع قوله سبحانه في سورة المؤمنون: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ﴾.

يقول صاحب روح المعاني: «إنَّ إجابة الملأ هنا صدِّرت بواو العطف فقال الله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ﴾، ولكن في سورة الأعراف قال الله: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ﴾ بدون واو العطف على طريق الاستئناف؛ لأن المرسل إليهم هنا قالوا ما قالوا بعضهم لبعض، وهذا يأبى الاستئناف، أما هنالك فقد كانت المقاولة بين المرسَل والمرسَل إليهم، وهذا يقتضي الاستئناف»[1].

ونتساءل ما هو السر في اختصاص سورة المؤمنون بواو العطف ؟ حاول صاحب «الكشاف»، وغيره أن يحددوا السر، فعرضوا مجموعة من الإجابات، ولكن صاحب «روح المعاني» رفض هذه الإجابات بعد أن ناقشها، ثم قال في النهاية: «وأنا لم يظهر لي السر في ذلك»، ونحن نؤيد هذا المسلك.

وعلى كلٍّ، فالخلاف مُنْصَبٌّ على الإتيان بواو العطف في سورة دون أخرى، وفي عرض دون آخر: صاحب «الكشاف»، وغيره، يحاولون الإجابة، و صاحب «روح المعاني» يفوض ويسلم بعجزه عن معرفة السر، لكن ليس هناك خلاف في أنَّ المحاورة دارت بين الأشراف بعضهم وبعض، ويبدو أنَّ هذه المحاورة حضرها هود، ومن هنا فإنها تعتبر إجابة لهود؛ لأنه على هذا يكون قد فهم موقف القوم.

(١) روح المعاني، للآلوسي، ٩/ ٢٣١.

• وتضيف سورة الشعراء أنَّ وصف القومِ هودًا بالكذب لم يقتصر على هود، وإنما شمل المرسلين من قبله، ويظهر ذلك من قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧]، على أساس التفسير الذي ذكرناه سابقًا.

• وتضيف سورة الأحقاف في إجابتها: أنَّ هودًا اجتهد في دعوته وحاول بكل وسيلة أن يصرفهم عن آلهتهم، ويفهم ذلك استنتاجًا من قولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

وأخيرًا نقول:

إذا كانت الإجابات تتفق في بيان موقف القوم، وفي الاتهامات التي وجهت لهود عليه السلام. فلا يخفى ما في كل عرض من اختلاف في الأسلوب ينأى بالتكرار بعيدًا عن الملل والسآمة، وسبحان من أعجز كلامه البشر قاطبة، وسبحان من اعترف بعظمة كتابه أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء.

إجابة هود:

• في سورة الأعراف أجاب هود قومه بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٧ - ٦٩].

معنى الإجابة :

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ يدافع هود عن نفسه وينفي عنها تهمة السفاهة، ثم يقدم للقوم نفسه ويبين لهم وظيفته، وأنه ليس معقولًا أن يكذب عليهم أو يخدعهم، إنما هو ناصح فيما يبلغهم به ويدعوهم إليه، أمين فيما ينقله عن الله لا يغير فيه ولا يبدل.

ومن الآيتين نفهم كيف كان خلق الأنبياء. وفي ذلك يقول صاحب الكشاف:

«وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام على من نسبهم إلى الضلالة والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء، وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأنَّ خصومهم أضل الناس وأسفههم - في إجابتهم هذه أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عز وجل ذلك: تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء؟ وكيف يغضون عنهم، ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم»[1].

﴿ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ ﴾ يبدو أنَّ هودًا فهم أنَّ القوم قد تعجبوا من اختصاصه بالرسالة- هكذا نلمس من خلال التعبير القرآني السابق: وهنا حاول إزالة هذا العجب من نفوسهم فقال ما قال، والمعنى: «أكذبتم»[2] وعجبتم من أن جاء ذكر وموعظة من ربكم على لسان

---

(١) تفسير الكشاف، للزمخشري، وانظر: تفسير سورة الأعراف للأستاذ الدكتور/ أحمد الكومي، ص ١١٠؛ فقد نقل هذا النص، وكذلك نقله صاحب البحر المحيط ٤/ ٣٢٤.

(٢) الهمزة في قوله: ﴿ أَوَعَجِبۡتُمۡ ﴾، للاستفهام الإنكاري، والواو بعدها للعطف على محذوف مقدر بعد الهمزة، وتقديره أكذبتم.

رجل منكم؟ أنَّ ما تعجبتم منه ليس موضع عجب، فمن رحمة الله سبحانه أن يرسل الرسل؛ ليرشدوا الناس إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة[1].

ثم أخذ هود يذكِّرهم بواقعهم الذي يعيشون فيه؛ لكي يحملهم على شكر الله فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ومعنى قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾، اذكروا نعمة الله حيث[2] استخلفكم وجعلكم عمار الأرض بعد قوم نوح، ويفهم من هذا التذكير: قرب زمان عاد من زمان نوح.

ويقول صاحب روح المعاني: «إذ منصوب على المفعولية؛ لقوله: «اذكروا»[3]، أي اذكروا هذا الوقت المشتمل على النعم الجسام، وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مع أنه المقصود بالذات، للمبالغة في إيجاب ذكره، ولأنه إذا استحضر الوقت كان هو حاضرًا بتفاصيله».

ومعنى قوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]: زادكم في المخلوقات بسطة وسعة في الملك والحضارة، أو زادكم في خلق[4] أبدانكم حيث أطالها وقواها، فقد كانوا طوال الأجسام أقوياء الأبدان.

---

(١) تفسير سورة الأعراف، للكومي، ص ١١٠، وانظر تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ٨/ ٤٩٣.

(٢) «إذ» على هذا الرأي: ظرف.

(٣) قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾، معطوف على محذوف تقديره: لا تتعجبوا واذكروا.

(٤) ﴿ٱلْخَلْقِ﴾، على الرأي الأول بمعنى: المخلوق، وعلى الثاني يكون مصدرًا. انظر المنار، لمحمد رشيد رضا، والبحر، لأبي حيان.

وقد علق كثير من الباحثين على ما رواه المفسرون من روايات تتعلق بهؤلاء الناس، من ناحية الضخامة والقوة، فقالوا: إنها روايات إسرائيلية لا أصل لها.

وهذا التعليق صحيح؛ فالإنسان تتملكه الدهشة وهو يطلع على أمثال هذه الروايات في كتب التفسير، ويقول: أما كان الأولى أن يضرب المفسرون عن هذه الأقوال صفحًا.

وإذا أردنا أن نعرف شيئًا عن قوة أجسام قوم هود وضخامتها فحسبنا أن نقرأ قول الله في سورة الشعراء: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]، وقوله في سورة الحاقة: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

ويختم هود تذكيره بتذكيرهم نعم الله عليهم جملة لا تفصيلًا فيقول:

﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

والمعنى: اذكروا النعم الكثيرة التي ترفلون فيها وتتقلبون بين جوانبها. واشكروا الله عليها رجاء أن تفلحوا.

- وفي سورة هود أجاب هود بقوله: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ

أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هـود: ٥٤ – ٥٧].

معنى الإجابة :

﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ﴾ أعلن هود براءته من كل الشركاء الذين يعبدونهم من دون الله، وأشهد الله على ذلك، وأمرهم أن يشهدوا هم أيضًا بها.

وإنما غاير بين الشهادتين؛ لأن إشهاد الله إشهاد حقيقي، أما إشهادهم فالغرض منه السخرية والاستهزاء، كما يقول الرجل لخصمه إذا لم يبال به: اشهد على أني قائل لك كذا[1].

﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، يأمرهم هود عليه السلام بالاجتماع والاحتشاد مع آلهتهم جميعًا لا مع بعضها التي سلطت عليه سهامها، وأن يتعاون الجميع في إيصال الكيد إليه، ثم ينهاهم عن الإمهال والإنظار، كل هذا مما يدل على كمال ثقة هود عليه السلام بالله سبحانه[2].

﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ وبعد التحدي السابق لهم ولآلهتهم، أعلن هود توكله على الله، فمن توكل على الله لا يخاف من كيد ولا يفزع من وعيد.

---

(١) انظر روح المعاني، للآلوسي، ١٢ / ٨٣، والبحر المحيط، لأبي حيان، ٥ / ٢٣٣.

(٢) ذكر صاحب روح المعاني هذا الرأي أيضًا في تفسيره..

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[(١)].

يبين هود لهم أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا؛ لأن الذي توكل عليه هو الله القادر القاهر، كل دابة في قبضته وملكه، وتحت قهره وسلطانه، وهم من جملة أولئك المقهورين.

ثم أخذ هود ينذرهم ويتوعدهم فخاطبهم قائلًا: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٧] . ومعنى قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾، إن تتولوا لم أُعاتَب على تفريط في الإبلاغ، فإنَّ ما أرسلت به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول.

ومعنى قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾: يهلككم ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم، ولا ينقص ملكه شيئًا بهلاككم.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾: إن ربي يجازي على الأعمال خيرها وشرها، فالحفظ كناية عن المجازاة.

- وفي سورة المؤمنون، قال هود في إجابته: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٩ - ٤٠].

ومعنى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أن انتقم لي منهم، بسبب تكذيبهم إياي.

---

(١) الناصية: مقدم الرأس، واستعمال الأخذ بالناصية في القدرة والتسلط. مجاز.

أما قوله: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾، فمعناه: أنَّ الله سبحانه استجاب دعاء هود، فوعده بالانتقام منهم وتطهير وجه الأرض من أشكالهم، وبين أنهم عندما يعاينون العذاب سيندمون على تكذيبهم وعنادهم، ولا يغني عنهم ذلك شيئًا.

- وفي سورة الشعراء لا نرى إجابة لهود عليه السلام.

أما في سورة الأحقاف فنرى الإجابة على هذه الصورة: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٣].

ومعنى الآية: أنَّ هودًا يرجع علم وقت نزول العذاب إلى الله سبحانه ويبين أنه ليس له دخل فيه اطلاقًا، فهو لا يقدر على إنزاله، ولا يستطيع تعجيله، ومن هنا كان جوابه مطابقًا لقولهم: ﴿ٱئْتِنَا﴾، فقد أجابهم بنفي العلم عنه، ونفي العلم عنه يتضمن أنه لا يقدر عليه ولا على تعجيله؛ لأنه لو قدر عليه وأراده بالتعجيل لكان له علم به في الجملة[1].

ثم يبين لهم وظيفته وأنها البلاغ فقط، ومن جملة البلاغ بيان نزول العذاب -إذا لم ينتهوا عن الشرك- لا تحديد وقته.

وأخيرًا يقول لهم: ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾، وسبب وصفه لهم بالجهل: أنهم أدخلوا طلب نزول العذاب تحت وظيفة الرسل، أو المعنى: أنتم تجهلون عاقبة أمركم ولا تشعرون بها.

---

(١) روح المعاني، للآلوسي، بتصرف ٢٦/ ٢٥.

وقفة مع إجابة هود :

- إنَّ إجابة هود في سورة الأعراف يظهر فيها: أنَّ هودًا نفى عن نفسه تهمة السفاهة، وأنه قدم للقوم نفسه، وكشف عن وظيفته، وانشغاله بتقديم نفسه، والإعلان عن وظيفته. ينفي عن نفسه تهمة الكذب، ويظهر منها أيضًا أنه وبخهم على تعجبهم من أن يرسل الله إليهم رسولًا منهم، وأنه ذكرهم بشيء من نعم الله لعلهم يؤمنون.

- أما سورة هود فيظهر منها: أنَّ هودًا تبرأ من آلهتهم، وأنه تحداهم وآلهتهم، ثم أعلن توكله على الله الذي يخضع لسلطانه كل دابة، وأخيرًا يظهر منها أنه هدَّدهم بالهلاك.

- وتأتي إجابة سورة المؤمنون، فيظهر منها: أن هودًا دعا قومه. وأنَّ الله استجاب دعاءه، فوعده بالانتقام منهم.

- أما سورة الشعراء فلا نرى لهود عليه السلام إجابة.

وأخيرًا تأتي سورة الأحقاف فيظهر منها: أنَّ هودًا أرجع علم نزول العذاب إلى الله سبحانه، ثم بيَّن وظيفته، وأخيرًا وصفهم بالجهل.

مما تقدم نستطيع أن نقول :

إنَّ سورة الأعراف قد أضافت أنَّ هودًا نفى عن نفسه تهمة السفاهة بصريح العبارة بأسلوب رقيق لين، ولعلك على ذكر من كلمة صاحب «الكشاف» التي ذكرناها سابقًا، والتي تدل على ذلك.

وأضافت: أنَّ هودًا أنكر على القوم تعجبهم من اختصاصه بالرسالة.

وأضافت استنتاجًا أنَّ القوم قد تعجبوا من ذلك فعلًا.

وإذا كانت إجابة هود في سورة الأعراف قد تحدثت عن تذكير هود لقومه بشيء من نعم الله عليهم يتجلى في قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

فإنَّ هذا الحديث ليس جديدًا، فقد قال هود في ندائه الأول في سورة الشعراء: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢ - ١٣٤]، ولكن مع هذا، فقد اختلف أسلوب سورة الأعراف عن أسلوب سورة الشعراء، وحمل الاختلاف بعض الإضافات، فذكرت كل سورة نعم الله سبحانه لم تذكر في الأخرى، فذكرت سورة الأعراف نعمة استخلاف الله قوم هود لقوم نوح في عمارة الأرض، وذكرت نعمة الضخامة في الأبدان.

أما سورة الشعراء، فقد ذكرت نعمة الأنعام، ونعمة البنين، ونعمة الجنات، ونعمة العيون.

وفوق هذا نرى في كل سورة تذكيرًا بنعم الله على الجملة، فتقول سورة الأعراف: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾، وتقول سورة الشعراء: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ويلاحظ أنَّ التذكير المجمل اختلف مكانه في كل سورة، فقد ذكر في سورة الأعراف مؤخرًا، وذكر في سورة الشعراء مقدمًا، أي

أنَّ القرآن في سورة الأعراف فصل بعض النعم أولًا، ثم أجمل ثانيًا، وفي سورة الشعراء: أجمل أولًا ثم فصل ثانيًا.

ويلاحظ أيضًا أنَّ تذكير سورة الأعراف جاء بأسلوب هادئ رقيق. أما تذكير سورة الشعراء فقد صدر بترهيب، واقرأ قول الله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٨]، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١١٠].

ونأتي إلى إجابة سورة هود فنرى أنها قد أضافت: هذا التحدي لهم ولآلهتهم ثم إعلان التوكل على الله الذي يملك النواصي، وكأن هودًا بهذا ينفي نفيًا قاطعًا وحاسمًا أن تكون لآلهتهم قدرة على أن تصيبه بسوء، وكأنه أيضًا ينفي عن نفسه تهمة الجنون.

أما إجابة هود في سورة المؤمنون، فقد أضافت أن هودا دعا الله أن ينزل بهم عذابه.

وأضافت أنَّ الله استجاب دعاءه، فوعده بالانتقام منهم.

وأما إجابة سورة الأحقاف فإننا نرجئ الحديث عما أضافته حتى نعرض الإجابة الأخيرة لهود عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الأعراف؛ وذلك لأنها تتفق مع إجابة سورة الأحقاف، من ناحية أنها كانت مثلها ردًّا على طلب نزول العذاب الذي تبجح به القوم.

الإجابة الأخيرة في سورة الأعراف:

تقدم أن إجابة هود الأولى انتهت عند قوله: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فماذا قال القوم له ردًا على هذا الكلام؟ لقد قالوا كما حكي القرآن: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

ومعنى هذا الكلام أنَّ القوم أنكروا في هود أن يأمرهم بعبادة الله وحده، وأن يتركوا عبادة آلهتهم التي درجوا عليها، ويبدو من قولهم: ﴿لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾، أنهم كانوا يعترفون بالله ويقرون بربوبيته ولكن مع آلهة أخرى.

ثم طلب القوم في استهتار وبلا مبالاة نزول العذاب بهم فقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، ولكن النص طوى ذلك ولم يصرح به.

إجابة هود:

أجاب هود القوم بقوله: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١].

ومعنى قوله: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ[١] وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: ٧١]، قد حق ووجب عليكم من الله عذاب وسخط بسبب إصراركم على الكفر والعناد.

---

(١) الرجس: يعبر به عن العذاب واللعنة والكفر، انظر لسان العرب، لابن منظور مادة (ر ج س).

وعبر عن العذاب المتوقع وقوعه بأنه: ﴿قَدْ وَقَعَ﴾، مبالغة في تحقق الوقوع، وعطف الغضب على الرجس؛ للإشارة إلى أنَّ ما سينزل بهم من عذاب هو انتقام لا يمكن دفعه؛ حيث إنه صادر من الله الذي غضب عليهم بسبب كفرهم [١].

وبعد أنَّ أنذرهم هود بوقوع العذاب، ووبخهم على مجادلتهم له بالباطل فقال: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖ﴾[الأعراف: ٧١].

ومعنى قوله: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾: أنَّ خصامكم متوجه إلى شيء لا تصح فيه المخاصمة، أتخاصمونني في ألفاظ أسماء، ليس تحتها مدلول يستحق العبادة [٢].

فأنت ترى أن هودًا قد حول آلهتهم إلى مجرد أسماء لا تبلغ أن تكون شيئًا وراء الاسم الذي يطلق عليها، وهذا أعمق في الإنكار عليهم والاستهزاء بعقولهم.

أما قوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠]، فمعناه: ما أنزل الله بها من حجة أو دليل يؤيد زعمكم من ألوهيتها، أو في كونها شفعاء لكم عند الله.

---

(١) انظر تفسير سورة الأعراف، للكومي.

(٢) ويحتمل أن يكون المراد من الأسماء المسميات، وعلى هذا فهناك مضاف محذوف تقديره: ذوات أسماء.. انظر: البحر المحيط، لأبي حيان ٤ / ٣٢٦.

ثم هددهم بالعاقبة المقررة المحتومة فقال: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾[الأعراف: ٧١]، أي: انتظروا نزول العذاب الذي طلبتموه بقولكم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[الأعراف: ٧٠].

مما تقدم نستطيع أن نقول :

إنَّ القوم قد طلبوا من هود في استهتار وبلا مبالاة نزول العذاب في سورتي الأعراف والأحقاف، وإجابتهم هودًا في كل سورة إجابة تختلف عن الأخرى وتضيف جديدًا.

فإجابة سورة الأحقاف أضافت أنه لا يقدر على إنزال العذاب، ولا على تعجيله، ومن هنا فلا علم له به؛ لأنه لو قدر عليه، أو استعجله كان له به علم.

أما إجابة سورة الاعراف، فقد أضافت أنَّ له علمًا به استنتاجًا؛ وذلك لأنه أجابهم أنه واقع بهم لا محالة.

إذن فقد اختلفت الإجابتان، وأضافت كل منهما جديدًا، وفوق هذا، فإنَّ ما أضافته كل منهما يبدو متناقضًا، فكيف ذلك؟

ويجاب بأن هودًا في سورة الأحقاف لم يكن على علم بالعذاب، لا بنزوله وعدم نزوله، ولا بوقته وموعده، ثم أعلمه الله بعد ذلك، وقد يؤيد هذا ما ذكره، **صاحب البحر**، في تفسير قوله تعالى على لسان هود: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾[الأحقاف: ٢٣] فقد قال في

معناه: «إنما أنا مبلغ ما أرسلني به الله إليكم، ولما تحقق عنده وعد الله وأنه حال بهم وهم في غفلة من ذلك وتكذيب قال: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾، أي عاقبة أمركم لا شعور لكم بها وذلك واقع لا محالة»[1].

وكأن صاحب البحر يريد أنَّ يقول: إن هودًا لم يكن على علم بالعذاب، ومن هنا أعلن عن وظيفته، ثم أعلمه الله بعد ذلك وقبل أن يختم كلامه.

وهذا الكلام وجيه، ولكن تقطيع الآية على هذه الصورة. في النفس منه شيء، والأولى أن يقال: إنه علم بعد ذلك.

الحديث عن النهاية :

- في سورة الأعراف يقول سبحانه: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ[2] بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ[3]﴾ [الأعراف: ٧٢].

المعنى: يبين الله في هذه الآية أنه نجى هودًا ومن آمن معه، أما الكافرون فقد استأصلهم وقطع دابرهم، وكان ذلك بسبب كفرهم وتكذيبهم.

وقطع الدابر: كناية عن الاستئصال يقال: قطع الله دابره، أي أذهب أصله.

- وفي سورة هود يقول سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ

---

(١) المبحر المحيط، لأبي حيان، ٨ / ٦٤.

(٢) جملة «كذبوا بآياتنا»، يفهم منها كما يقول صاحب؟ أنه كانت لهود معجزات، ولكنها لم تعين لنا.

(٣) جملة، «وما كانوا مؤمنين»، مؤكدة لقوله: «كذبوا بآياتنا» انظر: تفسير سورة الأعراف، للكومي.

رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾ [هود: ٥٨ – ٦٠].

معنى قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ لما جاء العذاب لم ينج منه إلا المؤمنون وعلى رأسهم هود، وذلك برحمة الله وفضله، فالمراد بالأمر: العذاب.

وقوله: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ [هود: ٥٨]، معناه: ونجيناهم من عذاب شديد فظيع[١] وكرر النتيجة؛ لأنه حين أهلك عدوهم ذكر أنه نجاهم عند ذاك، ثم أراد سبحانه - والله أعلم بمراده - أن يحدد درجة العذاب الذي نجاهم منه فقال: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾[٢].

أما قوله: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ [هود: ٥٩]، فمعناه أنَّ عادًا كفرت بمعجزات هود أو بالآيات المنتشرة في هذا الكون[٣]، وعصوه عندما دعاهم إلى الله، وعصيانه عصيان لجميع الرسل، واتبعوا أمر كل طاغية متسلط لا يذعن للحق، بل ويحاول صرف الناس عنه، وإجبارهم على ما يريد.

ثم يبين القرآن أنَّ هلاك عاد كان متبعًا باللعنة والطرد من رحمة الله، وأنَّ ذلك لم يقتصر على الدنيا، بل في يوم القيامة تتبعهم هذه اللعنة فيقول سبحانه: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [هود: ٦٠].

---

(١) انظر تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١٢/ ٩٩.

(٢) انظر البحر المحيط، لأبي حيان، ٥/ ٢٣٥.

(٣) أغلب الظن أنَّ هذا هو الأرجح.

ثم يكشف القرآن سبب ما أصابهم من عذاب ولعنة فيقول: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ[1] رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٠].

وأخيرًا تختم القصة بقوله سبحانه: ﴿أَلَآ[2] إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠].

وهذا دعاء عليهم بالهلاك والبعد من الرحمة بعد أن هلكوا، تسجيلا باستدامة ذلك عليهم، ويصح أن يراد أنَّ هلاك قوم هود كان متبعًا بالبعد من رحمة الله بلا أسف ولا أسى عليهم.

- وفي سورة المؤمنون يقول سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءًۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١].

ومعنى قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ أخذتهم العقوبة الشديدة بالوعد الصدق الذي وعد الله به هودًا في ضمن قوله: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠].

أما قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ فمعناه: فجعلناهم كغثاء السيل، وهو يحمله من الورق والعيدان البالية.

وأما قوله: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فمعناه مثل معنى قوله سبحانه: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠].

---

(١) عدى (كفر) بنفسه: إجراء له مجري «جحد»، وعدًى، «جحد» بالباء إجراء له مجرى «كفر»، والضمير في قوله: (وأتبعوا)، عام في جميع عاد.

(٢) كرر حرف التنبيه في الدعاء عليهم؛ لإظهار أهمية هذا الدعاء، ويبدو أنه يستفاد منه أيضًا: الحث على الاعتبار بالقصة. انظر: روح المعاني، للآلوسي، والبحر المحيط، لأبي حيان، والمنار، لمحمد رشيد رضا.

- ونرى سورة الشعراء تقول: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾، فتذكر السبب والنتيجة، ثم تعقب بهذا القول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

- ونأتي إلى سورة الأحقاف فنراها تقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥].

المعنى:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ لما رأوا سحابة قبالة أوديتهم «اعتقدوا أنه عارض ممطر، ففرحوا واستبشروا؛ لأنهم كانوا في حاجة إلى المطر»[1]، فالضمير في قوله: ﴿رَأَوْهُ ﴾ مبهم، يفسره قوله ﴿عَارِضًا ﴾[2].

﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ[3] فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أخبرهم هود أنه العذاب الذي استعجلوه بقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأحقاف:٢٢]، ثم يبين هود نوع العذاب، وأنه ريح عاتية، ويلاحظ أنَّ الكلام على إضمار القول قبله والتقدير: قال هود: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾؛ وذلك لأن الخطاب بينه وبينهم، ولا يصح أن يكون من قولهم؛ لأنه على هذا يكون إضرابًا.

---

(١) ابن كثير بتصرف.

(٢) وقوله: ﴿ عَارِضًا ﴾: تمييز.

(٣) قوله: ﴿ رِيحٌ ﴾، بدل من، «ما»، من قوله ﴿مَا اسْتَعْجَلْتُم ﴾.

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا [1] لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

تدمر من أمرت بتدميره، فقوله: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ عام مخصوص، وإضافة الرب إلى الريح، وذكر الأمر؛ لبيان أنها مأمورة من جهة مالكها ومصرفها.

وكانت النتيجة أن بادوا عن آخرهم ولم تبق لهم باقية.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ تسجيل بأنَّ هلاكهم كان بسبب إجرامهم وبعدهم عن الله.

مما تقدم نستطيع أن نقول:

إنَّ حديث السور السابقة عن النهاية يتفق في أنَّ الله سبحانه نجى هودًا ومن آمن معه، وقطع دابر الكافرين بسبب كفرهم وتكذيبهم، ولكن مع هذا نرى اختلافًا في العرض وإضافات في بعضها، فقد أضافت سورة هود أنَّ الجبارين المتسلطين قد نجحوا في صرف الناس عن هود عليه السلام، نعم قد يستفاد من سورة الأعراف، وسورة المؤمنون أنَّ الأشراف حاولوا صرف الناس عن هود، ولكن لا يستفاد نتيجة هذه المحاولة، التي دلت عليها سورة هود، فقد عبرت سورة هود عن النتيجة بقولها: ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

وأضافت سورة الأحقاف: تحديد نوع العذاب وأنه الريح.

(١) الفاء في قوله ﴿فَأَصْبَحُوا﴾، فاء النصيحة أي نجاتهم فدمرتهم فأصبحوا.

وإنك تستطيع أن تلمح شيئًا من الفرق بين الأسلوب في كل سورة أثناء حديثها عن درجة العذاب ونتيجته.

وتستطيع أيضًا أن تلمح شيئًا من الفرق في الأسلوب بين التعقيبات التي ذكرت في خاتمة القصة في بعض السور.

ونكتفي بذلك، والله أعلم.

هذه هي المواضع التي ذكرت فيها القصة بتفصيل، أما المواضع التي ذكرت فيها القصة بإيجاز، فهي سورة القمر، وسورة الذاريات، وسورة الحاقة، وأظهر ما يستفاد من قصة هود في هذه المواضع: نوع العذاب، ومدته، ودرجته، ونهاية القوم أو مصارعهم.

ويصح أن نقول: إنَّ قصة هود في تلك المواضع كانت إشارات سريعة خاطفة تجلى فيها ما ذكر.

ففي سورة القمر يقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨-٢١].

وفي سورة الذاريات يقول سبحانه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢].

وفي سورة الحاقة يقول ﷻ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨].

قصة صالح عليه السلام

بين يدي القصة

لقد ذكرت هذه القصة في كثير من سور القرآن. وكانت تعرض بتفصيل أحيانًا. وبإيجاز أحيانًا أخرى.

ومن المواضع التي ذكرت فيها القصة بتفصيل: سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة الشعراء، وسورة النمل، وسورة القمر.

أما المواضع التي ذكرت فيها القصة بإيجاز فهي: سورة الحجر، وسورة فصلت، وسورة الذاريات، وسورة النجم، وسورة الحاقة، وسورة الشمس.

وجهة نظرنا في الحكم على القصة بالإيجاز والإطناب هي الوجهة نفسها التي عرضناها في قصة نوح، إنما أدخلنا سورة القمر، في جملة السور التي عرضت القصة بتفصيل -وإن لم يظهر فيها عنصر الحوار-؛ لأن سورة القمر جرى فيها حوار بين القوم بعضهم وبعض، وجرى فيها خطاب تقديري وجهه صالح إلى القوم كما سنرى عند عرض الآيات.

وتتلخص هذه القصة في تلك المواضع التي ذكرت فيها بتفصيل: في المحاورة التي دارت بين صالح وبين القوم، وفي الحديث عن الناقة. ثم في الحديث عن النهاية.

أما الافتتاح هنا، فإننا لا نكاد نرى اختلافًا أو إضافات اللهم إلا افتتاح سورة الشعراء، وقد سبق الحديث عن الإضافات التي يمكن أن نأخذها منه، ومن هنا فلن نقف عند افتتاح قصة صالح في تلك السور، ولكننا سنقف عند النقاط السابقة في تلك المواضع؛ لنرى ما الإضافات التي يحملها كل عرض.

وأما المواضع التي ذكرت فيها القصة بإيجاز فهي إشارات سريعة خاطفة أبرزت نهاية القوم ومصارعهم، وسنحاول أن نكشف شيئًا من أسباب إيجازها في تلك المواضع، وكلامنا في هذا لن يكون خاصًّا بقصة صالح وحدها، وإنما يصلح لها ولغيرها من القصص السابق واللاحق.

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
٧٣ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
٧٤ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ
٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ
٧٦ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ
٧٧ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ

﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا
تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٩].

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ
﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى
شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى
مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ
هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ
مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ
فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا
بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦١-٦٨].

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ
﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ
أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾
وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ

﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ
فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾
[الشعراء: ١٤١-١٥٩].

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا
هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا
تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ
عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا
مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا
يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ
﴿٥١﴾ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ
﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٤٥-٥٣].

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ
صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾
[فصلت: ١٧-١٨].

قال الله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ [الذاريات: ٤٣-٤٥].

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥٠-٥١].

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٣-٣٢].

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٤-٥].

قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١١-١٥].

النداء الأول:

- تتحدث سورة الأعراف عن هذا النداء فتقول: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم

بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

المعنى:

توضح الآية الأولى أنَّ صالحًا دعا قومه إلى الله، مطالبًا إياهم أن يعبدوه وأن يقروا بوحدانيته، ثم قدم لهم دليلًا على نبوته، وهذا الدليل هو الناقة، والسياق هنا لم يذكر تفصيلًا عن الناقة أكثر من أنها بينة. وأنها ناقة الله وفيها آية منه، ثم طلب صالح من قومه أن يتركوا هذه الناقة حرة طليقة، وألا يتعرضوا لها بأذى فيهلكوا بعذاب أليم.

وتوضح الآية الثانية أنَّ صالحًا -بعد كلامه السابق -أخذ يذكرهم بشيء من نعم الله، فقد أنعم عليهم بجعلهم خلفاء لقبيلة عاد في الحضارة والعمران، والقوة والبأس، وأنعم عليهم بأن أسكنهم هذه الأرض التي يعيشون فوقها، وعلمهم فن البناء، وفن النحت، فاتخذوا الدور في السهول وفي الجبال، وأخيرًا يذكرهم بنعم الله إجمالًا، وينهاهم عن الفساد.

- وتتحدث سورة هود عن هذا النداء فتقول: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾.

ونرى هنا أنَّ صالحًا بعد أن دعا إلى الله يذكرهم بنعمة الخلق ونعمة الحياة فيقول: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، ثم يذكرهم بأنَّ الله سبحانه مكنهم من عمارة الأرض، فعلمهم أسباب عمرانها[1]، وطالبهم بعد ذلك بالرجوع إلى الله عن طريق الإيمان، ثم طالبهم بالرجوع إلى الله كلما وقع منهم ذنب أو خطأ.

• أما سورة الشعراء فتقول في هذا النداء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٢-١٥٢].

وصالح في هذا النداء ينكر عليهم عدم التقوى، ويقدم لهم نفسه، ويطالبهم بتقوى الله وطاعته هو، ثم يبين لهم أنه لا يبتغي أجرًا على دعوته، فأجره على الله وحده، وبعد ذلك أنكر عليهم أن تدوم الحياة لهم على هذه الصورة الهانئة الوادعة مع مسلك الجحود والكفران، وكأنه يقول لهم: إنكم لن تتركوا آمنين فيما حولكم من حدائق وأنهار، ومن زروع مثمرة، ونخل قد أينع واستوى، ثم يكرر أمره بتقوى الله وطاعته هو، ويحذرهم من طاعة الذين يسرفون في المعاصي ولا يصلحون إطلاقًا.

(١) كالزراعة، والصناعة، والنحت.

- وتأتي سورة النمل فنرى النداء فيها على هذه الصورة: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وصالح هنا يأتي نداؤه موجزًا مختصرًا.

ولا نرى في سورة القمر نداء.

وقفة مع نداء صالح:

مما تقدم نستطيع أن نقول:

- إنَّ كل نداء قد بين أنَّ صالحًا دعا قومه إلى التوحيد، ولكن مع هذا الاتفاق نرى إضافات تحملها غالب النداءات.

- فنداء سورة الأعراف قد أضاف أنَّ صالحًا ذكر قومه بأن الله جعلهم خلفاء من بعد عاد في الحضارة والعمران، والقوة والبأس، وذلك قوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ .

- وإذا كان نداء سورة الأعراف قد أبرز في معرض تذكير صالح لقومه: تذكيره بأنَّ الله أسكنهم هذه الأرض التي يعيشون فوقها وعلمهم فن البناء وفن النحت، فاتخذوا الدور في السهول وفي الجبال، ويظهر ذلك من قوله: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗا . . .﴾، فإن نداء سورة هود يشترك معه في ذلك، ويظهر هذا من قول صالح لقومه: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾، فقد تقدم أن المعنى: مكنكم من عمارة الأرض، فعلمكم أسباب عمرانها، لكن هذا التذكير جاء في سورة الأعراف مفصلًا، وجاء في سورة هود مجملًا.

- ويضيف نداء سورة هود في معرض التذكير: تذكير صالح لقومه بنعمة الخلق والحياة، وذلك قوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

- ويضيف نداء سورة الشعراء: أنَّ صالحًا بين لقومه أنه لا يطلب أجرًا على دعوته، فأجره على الله وحده، ويبدو أنَّ القوم قد وقع في نفوسهم هذا، أو صرحوا به، ولكن النص طوى ذلك، وجاء بما يدل عليه وهو قوله سبحانه على لسان صالح: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

ويضيف نداء سورة الشعراء أنَّ صالحًا أنكر عليهم أن يتركوا آمنين فيما حولهم.

ويظهر في هذا الإنكار ضروب أخرى من نعم الله التي أنعم بها عليهم، لا تظهر في سورة الأعراف، ولا في سورة هود، وذلك قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٧ -١٤٨].

ومن هنا نقول: انه وهو ينكر عليهم ذكرهم بنعم أخرى غير التي ذكرهم بها في معرض التذكير في سورة الأعراف وفي سورة هود.

ويضيف هذا الإنكار استنتاجًا أنَّ صالحًا يهددهم بزوال هذه النعم، فكأنه يقول لهم: إنكم لن تُتْرَكوا آمنين فيما حولكم، فاحذروا أن تتقلب بكم الأيام، فتزول عنكم هذه النعم.

ويضيف أنَّ صالحًا نهاهم عن طاعة المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، ويبدو أنَّ المراد بهم: الرؤساء والأشراف، فهم

الذين يفسدون دائمًا، بمحاولاتهم المتكررة صرف الناس عن دين الله، وقد رأينا موقفهم من نوح عليه السلام، ورأينا أيضًا موقفهم من هود، وسنرى موقفهم بشيء من التفصيل من صالح عليه السلام.

إجابة القوم:

تتحدث سورة الأعراف عن هذه الإجابة فتقول: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥].

المعنى:

هذه محاورة دارت بين السادة الكفرة، وبين المستضعفين المؤمنين - بعد أن دعا صالح إلى الله - ولقد بدأ السادة الحديث بقولهم للمستضعفين: أتعرفون أنَّ الله أرسله وحمله التبليغ؟ فأجاب المستضعفون: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ ولم يقولوا: نعلم أنه مرسل، أو ليس بمرسل؛ ليظهروا أنَّ كونه مرسلًا أمر لا يقبل المناقشة؛ لأنه واضح لا غموض فيه (وإنما الكلام في وجوب الإيمان، فنخبركم أنا به مؤمنون[1]، فرد الكفرة قائلين: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦]، ولم يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون خوفًا من أن يظهر في كلامهم الإقرار برسالته، فذلك يتضمن الشهادة على أنفسهم أنهم يجحدون الحق[2].

(١) تفسير الكشاف، للزمخشري، ٢/ ١٢٣.

(٢) الكشاف، والمنار، لمحمد رشيد رضا.

وتتحدث سورة هود عن هذه الإجابة فتقول: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود:٦٢].

المعنى:

يا صالح قد كنت موضع رجائنا عندما ينزل بنا أمر من الأمور، بما لك من عقل راجح ورأي سديد، فلما دعوت إلى هذا انقطع رجاؤنا منك، وإننا لفي شك كثير من دعوتك هذه.

أما إجابة القوم في سورة الشعراء فنراها على هذه الصورة: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء:١٥٣-١٥٤].

المعنى:

أنت مسحور قد غاب عقلك ومن هنا فأنت تهذي بما لا تعرف، ثم أيدوا أنه مسحور بكونه بشرًا يماثلهم في البشرية، ويبدو أنَّ غرضهم من مجموع الأمرين نفي رسالته، وأخيرًا طالبوه بآية تدل على صدقه في دعواه النبوة.

وتأتي سورة النمل فنراها تقول في إجابة القوم: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

والإجابة هنا لا تستفاد من عبارة النص، وإنما تستفاد من السياق، فقد أفادت العبارة أنَّ القوم قد بادروا صالحًا بالمجادلة والخصومة، ويسكت النص فلا يصرح بكلامهم الذي أعلنوا به هذه الخصومة.

ويبدو أنهم بعد أخذ، ورد، وجدال، ومناقشة أظهر القوم فيها نفورهم، فوعدهم صالح بالعذاب، فطلبوا منه أن ينزل بهم ما توعدهم به، ويدل على هذا إجابة صالح لهم، فقد قال في إجابته: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦].

وعلى هذا فالمراد بلفظة: «فريقان»، صالح وقومه قبل أن يؤمن منهم أحد، هكذا قال صاحب الكشاف، ويعلق صاحب البحر بقوله:

«فجعل -يقصد الزمخشري- الفريق الواحد هو صالح، والفريق الآخر قومه» ثم يقول في توضيح المعنى: و«إذا» هنا هي الفجائية والعطف بالفاء يقتضي التعقيب، فكأن المعنى أنهم بادروا بالاختصام متعقبًا دعاء صالح إياهم إلى عبادة الله».

وأما إجابة القوم في سورة القمر فتقول: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر:٢٤].

وهذه محاورة دارت بين قوم صالح فقد قال بعضهم لبعض بعد أن دعاهم صالح إلى الله ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾، وهذه العبارة تفيد موقفهم من قضية الإيمان، وأنهم لا يمكن أن يتبعوه، فهو بشر من جنسهم، وواحد من آحادهم لا من أشرافهم، ويؤيد أنَّ المراد بقولهم،﴿وَٰحِدًا﴾، ما ذكرنا: التنكير الذي يدل على عدم التعيين.

ثم قالوا: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾، والمعنى: إنا إذا اتبعنا بشرًا من جنسنا وواحدًا من آحادنا، نكون في ضلال وجنون.

ثم أنكروا اختصاصه بالرسالة فقالوا: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [القمر: ٢٥]، وأخيرًا انتقلوا إلى وصفه بالكذب والطمع، فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥]، أي: هو كذاب دفعه الطمع إلى أن يقول إنه رسول اختصه الله بالرسالة.

وإذا كان قولهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾، يفيد أنهم لن يتبعوه، فكل عبارة قالوها بعد قولهم هذا تفيد ذلك وتؤكده[1].

مما تقدم نستطيع أن نقول:

إنَّ كل إجابة أجاب بها القوم صالحًا عليه السلام يظهر فيها إضافات لا توجد في الأخرى.

- فسورة الأعراف تبرز الإجابة في صورة محاورة لا تدور بين صالح وقومه، وإنما تدور بين الكفرة والمؤمنين، وإنما اعتبرنا هذه المحاورة إجابة؛ لأننا نرجح أنَّ صالحًا حضرها وفهم موقف القوم منها.

ولقد حاول الكفرة في هذه المحاورة صرف المؤمنين عن دين الله فلم يفلحوا، ويبدو أنَّ غرضهم من هذا السؤال: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٧٥]، التهديد والترهيب، ومن هنا فإننا نقول إنَّ سورة الأعراف قد أضافت محاولة صرف المؤمنين عن دين الله، وكيف كان ذلك؟

وتضيف إجابة سورة هود: مكانة صالح في نفوس قومه قبل أن يدعو إلى دين الله، وأنه كان محل رجائهم، فلما دعا انحطت مكانته. ويظهر ذلك من قولهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢].

(١) انظر البحر المحيط، لأبي حيان، ١٠/ ٤١، وانظر الكشاف، للزمخشري، ٤/ ٤٣٧.

- وتضيف إجابة سورة الشعراء: أنَّ القوم قد تطاولوا على صالح فاتهموه بأنه كالمسحور الذي يهذي بما لا يعرف، ويظهر ذلك من قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾.

- وتضيف أنهم طالبوه بآية تدل على صدقه في دعواه النبوة، ويظهر ذلك من قولهم: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

- وتضيف إجابة سورة النمل استنتاجًا من قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

ومن إجابة صالح: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ نضيف استنتاجًا من هذا وذاك أنَّ القوم قد طلبوا من صالح أن ينزل بهم العذاب الذي توعدهم به، وقد تقدم ذلك.

وإذا كانت سورة الأعراف قد أفادت أنَّ القوم قد طلبوا من صالح نزول العذاب الذي توعدهم به، ويظهر ذلك من قولهم له فيها، ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، فإنها قد أفادت أنَّ طلبهم هذا كان بعد عقر الناقة، ويبدو من السياق في سورة النمل أنَّ القوم قد طلبوا ذلك قبل الحديث عن الناقة مطلقًا، ويؤيد هذا أن التعبير السابق وهو قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ تدل: (الفاء)، فيه على المبادرة والتعقيب بالخصومة لصالح بعد الدعوة إلى الله، وعلى فرض أنه كان بعد الدعوة، وبعد الحديث عن الناقة كمعجزة، فإنه كان قبل عقر الناقة.

وعلى هذا فالغالب على الظن أنهم طلبوا ذلك مرتين، وتكون سورة الأعراف بهذا قد أضافت جديدًا، وكذلك سورة النمل.

- أما إجابة سورة القمر فهي محاورة دارت بين القوم بعضهم وبعض تواصوا فيها بعدم اتباع صالح عليه السلام.

وتضيف هذه الإجابة بيان منزلة صالح الاجتماعية، فقد أظهر القوم أنَّ من أسباب عدم اتباعه أنه واحد من عامة القوم لا من أشرافهم وسادتهم، ويظهر ذلك من قولهم، ﴿وَاحِدًا﴾، في قوله سبحانه: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾.

وتضيف اتهامهم له بالطمع، فصالح في نظرهم له مأرب دنيوي في دعواه.

أما اتهامهم له بالكذب فهو ليس إضافة انفردت به سورة القمر، فقد أظهرت سورة الأعراف ذلك في قولهم له: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، فالتعبير بلفظة، ﴿إِن﴾، يفيد ترجيح جانب التكذيب على جانب التصديق، ويظهر في سورة الشعراء على هذه الصورة أيضا في قولهم، ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]، ويظهر في سورة هود في قولهم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢]، فالشك الكثير الذي يحدث في النفس قلقًا واضطرابًا، ترجح لجانب التكذيب.

- وإذا كانت سورة الشعراء قد أبرزت أنَّ القوم قد أنكروا رسالة صالح، بحجة أنه بشر يماثلهم في البشرية، فإنَّ سورة القمر قد أبرزت

ذلك أيضًا، وأضافت فوق ذلك التصريح بتعجبهم من اختصاصه بالرسالة، ويظهر ذلك من قولهم: ﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾، يعني على فرض التسليم ببشرية الرسول فلماذا ينزل الذكر عليه ويتركنا؟

رد صالح:

تتحدث سورة هود عن إجابة صالح ورده على القوم فتقول: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾.

المعنى:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾.

يا قوم أخبروني إن كان الله سبحانه قد أعطاني النبوة وأيدني بالمعجزة التي تدل على صدقي.

﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ لا أحد ينصرني من الله ويدفع عني عقابه إن كتمت رسالته، وحرصت على رجائكم فيَّ.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ **لا تزيدونني غير إيقاع في الخسران.**

﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود: ٦٤].

لا يذكر السياق هنا صفة لهذه الناقة التي أشار إليها صالح؛ لتكون آية لهم وعلامة، ولكن في إضافتها إلى الله، ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾، وفي تخصيصها لهم ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾، ما يشير إلى أنها آية لهم من الله، ونكتفي بهذا دون الخوض في ذلك الخضم من الأساطير والإسرائيليات التي تفرقت بها أقوال المفسرين حول ناقة صالح، وبعد أن حدد لهم صالح آية صدقه ودليل نبوته، أمرهم أن يتركوها حرة طليقة تأكل في أرض الله، وألا يتعرضوا لها بأذى فيهلكوا.

وفي إضافة الأرض إلى الله، دليل على أنها كانت ترعى في أرض ليست مملوكة لأحد، ومن هنا فلا ضرر عليهم في بقائها، فإذا أصابوها بسوء فقد تجاوزوا الحد في الظلم والاعتداء.

- وفي سورة الشعراء يقول صالح: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥-١٥٦].

المعنى:

بعد أن طلب القوم من صالح آية تدل على صدقه أعطاه الله الناقة دليلا على ذلك، فقال لهم: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ﴾، وكانت الناقة أمامهم حاضرة مشاهدة، ثم بين أنها سترد الماء يومًا ويردونه يومًا، ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، ثم نهاهم أن يتعرضوا لها بسوء حتى لا يهلكوا، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

• وفي سورة النمل يجيب صالح القوم بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

المعنى:

أنكر عليهم صالح أن يستعجلوا بالعذاب ولا يطلبوا الهداية، وحاول أن يوجههم إلى الاستغفار لعل الله يدركهم بالرحمة.

ولقد كان يبلغ من فساد القلوب أن يقول المكذبون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

بدلًا من أن يقولوا: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إلى الإيمان والتصديق».

• أما سورة القمر فنرى الإجابة على هذه الصورة: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٦-٢٨].

المعنى:

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾، حكاية لما قاله سبحانه لصالح عليه السلام وعدًا له ووعيدًا لقومه، ويبدو أنَّ صالحًا قال هذا الكلام لقومه بصيغة التخاطب بعد أن أوحاه الله إليه ردًّا على اتهام القوم له بالكذب والطمع.

والمعنى: «سيعلمون عندما ينزل بهم العذاب من الكذاب الأشر الذي حمله أشره على ما حمله، أصالح أم من كذبه؟ والمراد: سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون، لكن أورد ذلك مورد الإبهام، إيماء إلى أنه مما لا يكاد يخفى»(١).

﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ هذا الكلام أيضا حكاية لما قاله سبحانه لصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويبدو أنَّ صالحًا أخبر القوم بما يختص بهم منه، ونفذ هو ما يختص به، فأخبر القوم، بعد أن أرسل الله الناقة أنَّ هذه الناقة آية ابتلاء وامتحان إن أطاعوا أَمْرَ الله فيها نجوا جميعًا، وإنَّ عصوه هلكوا جميعًا، أما هو فقد راقبهم وانتظر ما يصنعون، وصبر على سخريتهم وأذاهم.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ الآية واضحة الدلالة في أنَّ صالحًا أخبرهم بما تحوي فأخبرهم بأنَّ الماء قسمة بينهم؛ أي: بين الناقة وبينهم يحضر كلٌّ في نوبته بلا مزاحمة.

مما تقدم نستطيع أن نقول:

إنَّ الحديث عن الناقة يختلف مكانه في سورة الأعراف عنه في بقية السور التي تحدثت عن الناقة.

فسورة الأعراف جاء الحديث فيها عن الناقة في النداء الأول الذي وجهه صالح إلى قومه.

---

(١) روح المعاني، للآلوسي، ج١٤، ص ٨٨.

أما سورة هود، وسورة الشعراء، وسورة القمر، فقد جاء الحديث فيها عن الناقة في إجابة صالح القومَ بعد ندائه الأول وبعد رد القوم عليه. وقد علمت أنَّ حكاية الله ما قاله لصالح عليه السلام تعتبر إجابة؛ لأن صالحًا بلغ القوم ما يختص بهم، ونفذ بذلك أمر الله سبحانه.

ويلاحظ أنَّ كل السور التي تحدثت عن الناقة جعلت الناقة معجزة قدمها صالح لقومه، كدليل على نبوته بادئ ذي بدء، يعني بلا طلب من القوم، ما عدا سورة الشعراء، فقد جاء الحديث فيها عن الناقة كمعجزة أعطاها الله لصالح بعد طلب القوم وذلك قوله سبحانه ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

وليس هناك تناقض أو اختلاف، بل يبدو أنَّ القوم طلبوا من صالح عليه السلام آية تدل على صدقه. فكانت الناقة، وبعد أن وجدت الناقة معجزةً ودليلًا، كان صالح يلقاهم ويدعوهم إلى الله، ويتحدث عن الناقة معجزة موجودة.

ويقول صاحب المنار: «**وقد حكى هنا -يقصد سورة الأعراف-** عن صالح عليه السلام أنه ذكر الآية التي أيده الله تعالى بها عقب ذكر تبليغ الدعوة، وفي قصته من سورة هود أنه ذكر لهم الآية بعد ردهم لدعوته، وتصريحهم بالشك في صدقه، وزاد في سورة الشعراء طلبهم الآية منه، وكل ذلك صحيح ومراد، وهو المسنون المعتاد، ولا منافاة بين ذاك التفصيل وهذا الإجمال»[1].

---

(١) المنار، لمحمد رشيد رضا، ٨/ ٤٤٦.

- وإذا كانت سورة الأعراف، وسورة هود قد بينت كل واحدة منهما أثناء حديثها عن الناقة أنه يجب ألا يتعرض لها أحد بسوء في نفسها، ولا في أكلها، فقالت سورة الأعراف: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود:٦٤]، وقالت سورة هود العبارة نفسها، فإنَّ سورة الشعراء وسورة القمر قد بينت كل منهما أنه يجب ألا يتعرض لها أحد بسوء في نفسها، ولا في شربها، فقالت سورة الشعراء: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الشعراء:١٥٥-١٥٦]، وقالت سورة القمر: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر:٢٧-٢٨].

ويقول صاحب المنار بعد أن استعرض كثيرًا من الآيات التي تحدثت عن الناقة: «فدل مجموع الآيات على أنَّ آية الله تعالى في الناقة ألا يتعرض لها أحد من القوم بسوء في نفسها، ولا في أكلها، ولا في شربها، وأنَّ ماء ثمود قسمة بينهم وبين الناقة إذ كان ماء قليلًا، فكانوا يشربونه يومًا وتشربه هي يومًا، وورد أنهم كانوا يستعيضون عنه في يومها بلبنها، روى هذا عن ابن عباس وقتادة، فأما الرواية عن الأول فهي تصدق بماء معين معروف كان لشربهم خاصة؛ إذ ذكر في سورة القمر معرفًا وثبت في الحديث الآتي مرفوعًا.

وأما الرواية عن الثاني ففيها أن الماء كان لهم والماشيتهم وأرضهم وهو بعيد بل منقوض بما في سورة الشعراء من تعدد عيون الماء عندهم، وهو قول صالح لهم: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾

﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، وقد روى أحمد عن عبد الله بن عمر مرفوعًا أنه كان لهم آبار وأنَّ النبي ﷺ دل المسلمين على البئر التي كانت تشرب منها الناقة حين مروا على ديار قوم صالح في غزوة تبوك. وفي البخاري عنه أنَّ النبي ﷺ أمرهم أن يستقوا منها ويهريقوا ما استقوا من غيرها من تلك الآبار، قال العلماء: وقد علمها بالوحي. ولا يصح شيء يحتج به في خلق الناقة من الصخرة أو من هضبة من الأرض»[1].

- أما التهديد بالعذاب الذي حذَّر به صالح قومه، فقد اختلف التعبير عنه في السور التي ذكرته، فقد قال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الأعراف: ٧٣]، وقال في سورة هود: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود:٦٤]، وقال في سورة الشعراء: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٥٦].

ويذكر صاحب، «درة التنزيل»، سر هذا التغاير فيقول: «فالآية الأولى تحذير للقوم على طريق العموم، فأما قوله في الثانية: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾، بعد ما قال في الأولى، «أليم»، فإنه اختص هذا المكان بقريب، لما بعده من قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:٦٥]، فذكر المدة التي بينهم وبين هلاكهم وقرب ما توعدهم به من عذاب الله لهم والقريب لا ينافي الأليم بل هو أشد ألمًا، إذ لم يكن بعد مهل، فاختصاص الآية الثانية بقريب دون أليم؛ لما ذكرنا من قرب الميعاد المقرون ذكره إلى ذكره. وأما الآية الثالثة واختصاصها بقوله:

(١) المنار، لمحمد رشيد رضا، ٨/ ٤٤٧.

﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾؛ فلأن قبلها ذكر اليومين المقسومين بين الناقة وبينهم، كأنه قال لهم إن منعتوها يومها بعقر تنزلونه بها أخذكم عذاب يوم عظيم، فيوم تؤلمونها منه فيكون به يوم يؤلمكم الله فيه بعذاب الاستئصال وهو يوم عظيم عليكم، وكل ذلك بمعنى واحد وهو أنهم إن عقروها عوقبوا، فالألفاظ المختلفة دائرة على هذا المعنى، واختلافها لاختلاف مواضعها المقتضية تغيير الألفاظ فيها)[1].

ما أضافته سورة النمل فوق ما تقدم:

تنتهي المحاورة في السور كلها ولا تنتهي في سورة النمل، ومن هنا فإننا نرى في سورة النمل -فوق ما تقدم- إضافات تنفرد بها ولا توجد في غيرها، فنرى إجابة للقوم ردًّا على صالح عندما قال لهم: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل:٤٦]، ونرى ردًّا لصالح على هذه الإجابة، وأخيرًا نرى مؤامرة دبرت لاغتيال صالح عليه السلام ولكنها تبوء بالفشل.

أما الإجابة والرد فيظهران في قوله سبحانه: ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النمل:٤٧].

- والمعنى: تشاءمنا بك وبمن معك من المؤمنين؛ إذ تتابعت علينا الشدائد والكوارث منذ ظهر هذا الدين[2].

---

(١) درة التنزيل، للإسكافي، ١٥٦، وانظر أسرار التكرار، للكرماني، ٧٥.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي، ٤/ ١٦٢.

«فالتطير: التشاؤم، مأخوذ من عادة الأقوام الجاهلية التي تجري وراء الخرافات والأوهام... فقد كان الواحد منهم إذا هم بأمر لجأ إلى طائر فزجره، أي أشار إليه فطار، فإن مر سانحًا عن يمينه إلى يساره استبشر ومضى في الأمر، وإن مر بارحًا عن يساره إلى يمينه تشاءم وتوقع الضر. وما تدري الطير الغيب وما تنبئ حركاتها التلقائية عن شيء من المجهول...»(١).

فبين لهم صالح أنَّ حظهم من الشر راجع إلى قدر الله سبحانه، وقدر الله مبني على مقتضى حكمته فقال: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ثم بين السبب الذي من أجله ينزل بهم الشر فقال: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾، أي تختبرون بتعاقب السراء والضراء(٢).

• وأما المؤامرة فتظهر في قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ٤٨ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل:٤٨].

والمعنى: كان في المدنية -وهي الحَجر- تسعة رجال لا يصدر عنهم إلا الفساد ولا يصدر عنهم خير إطلاقًا، فهم موصوفون بقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾، ولقد تآمر هؤلاء على قتل صالح وأهله وقال

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٥/ ٤٢٨.

(٢) إنَّ صالحًا عليه السلام عندما قال: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾، لم يفصح عن سبب حظهم من الشر، ولكنه عندما قال: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾. ذكر السبب وهو الاختبار، وقد أضرب بهذا عن الأول، انظر: أنوار التنزيل، للبيضاوي، ٤/ ١٦٢.

بعضهم لبعض بشأن هذا التآمر: احلفوا بالله لنباغتن صالحًا وأهله ليلًا فنقتله، ثم لنقولن لولي دمه إن سألنا عنه: ما شهدنا هلاك أهله أو المكان الذي أهلكوا فيه.

ويقول صاحب البحر: «في الكلام حذف معطوف يدل عليه ما قبله، والتقدير: ما شهدنا مهلك أهله ومهلكه، ودل عليه قولهم لنبيتنه وأهله»[١].

ويذكر صاحب الفن القصصي كل ما نستطيع أن نستنبط منه السر الذي أضافت لأجله سورة النمل الحديث عن المؤامرة، فيقول بعد أن استعرض آيات قصة صالح وقصة لوط في سورة النمل[٢]: «وإني لأعتقد أنَّ هاتين القصتين نزلتا في الوقت الذي كان يأتمر فيه المشركون بالنبي عليه السلام. وهذا هو الواضح من مناسبة قصة صالح، ومن الحديث عن المدينة وما فيها من تسعة رهط، وعن التقاسم والتبييت لكل ما حدث في مكة؛ إذ هذه تكاد تكون صورة لما حدث من قريش ويذكره المؤرخون وأصحاب السيرة عند حديثهم عن الهجرة. ثم هذا هو الذي يتضح من حديث قوم لوط ومحاولتهم إخراجه من القرية، إنَّ المقصود من هذه القصص ليس إلا بث الثقة والطمأنينة في نفس النبي عليه السلام وإنَّ الله حافظه وناصره ومهلك أعدائه»[٣].

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان، ج ٨، ص ٢٥١.

(٢) الفن القصصي في القرآن الكريم للدكتور: محمد أحمد خلف الله ٧٠ الطبعة الأولى.

(٣) البحر المحيط، لأبي حيان.

الحديث عن عقر الناقة، وموقف القوم بعده:

- تتحدث سورة الأعراف عن عقر الناقة فتقول: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٧٧].

وتتحدث سورة هود عن هذه الجريمة فتقول: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:٦٥].

- وتتحدث سورة الشعراء عن ذلك بقولها: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ﴾ [الشعراء:١٥٧].

- أما سورة القمر فتقول: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر:٢٩].

- ومن مجموع هذه الآيات نستطيع أن نقول: تتفق كل الآيات في أنَّ الناقة قد ذبحت، وتتفق سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة الشعراء في نسبة العقر إلى جميع القوم: أما سورة القمر فإنها تضيف العقر إلى واحد منهم فقط.

- ويبدو أنَّ الذي تولى الذبح واحد فقط كما قالت سورة القمر، ولكن أسند العقر في السور الثلاث إلى الجميع؛ لأنه كان بتواطئهم ورضاهم، وقد أبرزت سورة القمر ذلك عندما قالت: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾، وقد روي عن قتادة أنَّ عاقر الناقة قال: لا أقتلها حتى ترضوا أجمعين، فجعلوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون: أترضين؟ فتقول: نعم، وعلى الصبي ... حتى رضوا أجمعين، فعقروها[١].

---

(١) انظر المنار، لمحمد رشيد رضا، ٨/ ٤٤٩.

ويعلق: ابن كثير، على هذا الأثر بقوله:

«قلت: وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:١٤]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾.. فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة، فدل على رضى جميعهم بذلك»[1].

- وتبين سورة الأعراف أنهم بعد عقرها تمردوا مستكبرين عن امتثال أمر الله، وكأنها تكشف عن حالتهم وقت ارتكاب الجريمة، وأنهم ارتكبوها وهم في تمرد واستكبار، وأنَّ ذلك صاحبهم بعد الجريمة ومن هنا قالوا لصالح ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.إذن فسورة الأعراف تضيف وصف حالهم ساعة ارتكاب الجريمة، وبعدها، وتضيف أنهم طلبوا من صالح أن ينزل بهم العذاب الذي توعدهم به، وكان وقت هذا الطلب بعد عقر الناقة.

- وتبين سورة هود أنهم بعد عقرها أمهلهم صالح ثلاثة أيام يحل عليهم بعدها عذاب الانتقام، وهذا البيان يعتبر إضافة جديدة أضافتها سورة هود أثناء حديثها عن ذبح الناقة. وذلك قوله سبحانه فيها ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:٦٥].

---

(١) تفسير ابن كثير، ٣/ ٣٩٦.

- وتبين سورة الشعراء حالهم بعد عقر الناقة أيضًا، وأنهم ندموا على فعلتهم فتقول: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ [الشعراء:١٥٧]، وهذه إضافة أضافتها سورة الشعراء.

وقد يقول قائل: أليس هناك تناقض بين هذه الآية وبين آية الأعراف التي تقول: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ [الأعراف:٧٧]، فهذه الآية تفيد أنهم لم يندموا، بل كانوا في تمرد واستكبار، وآية الشعراء تفيد عكس ذلك وأنهم أصبحوا في ندم وحسرة ؟

ويجاب بأنَّ هذا الندم لم يكن بعد ذبح الناقة مباشرة، وإنما كان عند معاينة العذاب، ففي هذه اللحظة ندموا ندم توبة فلم ينفعهم ذلك الندم كما قال الله سبحانه: ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء:١٨].

الحديث عن النهاية:

- في سورة الأعراف يقول الله سبحانه: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ[١] جَاثِمِينَ ﴾[الأعراف:٧٨].

- والمعنى أنَّ العذاب عندما نزل بهم قضى عليهم فصاروا موتى بلا حركة ولا حياة.

---

(١) الدار: المحل يجمع البناء والساحة والمنزل المسكون والبلد والقبيلة. والمعجم الوسيط مادة: (د.و.ر).

• وفي سورة هود يقول سبحانه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴾ [هود:٦٦-٦٨].

المعنى:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾.

لما جاء العذاب نجى الله صالحًا ومن آمن معه برحمته، ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍ﴾ [هود: ٦٦]، «أي من ذله ومهانته وفضيحته، ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه»[١].

وتذيل الآية بما يناسب سياقها فيقول الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾، ثم يفصل الله هذا الخزي فيقول: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود:٦٧].

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَا ﴾ «كأنهم في سرعة زوالهم وعدم بقاء أحد منهم في ديارهم لم يقيموا فيها ألبتة»[٢].

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ [هود: ٦٨] إظهار للسبب الذي من أجله استحقوا هذا العذاب.

(١) الكشاف، للزمخشري، ٢/ ٣٨٦.

(٢) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١٢/ ١٠٥.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨] تقدم الحديث عن مثله.

• وفي سورة الشعراء يقول ﷻ: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٥٨ – ١٥٩].

المعنى:

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بعد عقر الناقة لم يلبثوا إذ نزل بهم العذاب.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ إنَّ فيما ذكر من قصة صالح العبرة لمن أراد أن يعتبر.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (في نفي الإيمان عن أكثرهم إيماء بأنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب)(١).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (فإن ما حكم به لرسله وأتباعهم ولأعدائهم صادر عن عز ورحمة، فوضع الرحمة في محلها، وانتقم من أعدائه بعزته، ونجى رسله وأتباعهم برحمته)(٢).

• وفي سورة النمل يقول سبحانه: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٠ -٥٣].

ومن هذه الآيات نفهم أنَّ الذين تآمروا على صالح عندما حاولوا تنفيذ مؤامرتهم نزل بهم عذاب الله من حيث لا يشعرون،

---

(١) أنوار التنزيل، للبيضاوى، ٢/ ١٣١.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم ٢٠٠.

وذلك مكر الله، ويبدو أنَّ عذاب هؤلاء المتآمرين كان في وقت واحد مع عذاب القوم.

يقول صاحب الكشاف: «فلم يدر قومهم أين هم، ولم يدروا ما فعل بقومهم، وعذب الله كلًّا منهم في مكانه ونجى صالحًا ومن معه»[1] ونفهم من الآيات درجة العذاب وقوته وأنه استأصلهم فلم يبق منهم أحدًا، ونفهم السبب الذي من أجله وقع بهم.

وفي سورة القمر يقول سبحانه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣٠ – ٣١].

المعنى:

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تعظيم وتهويل لما حل بهم.

ثم يفصل الله ذلك العذاب ويفصل نتيجة الإنذار فيقول: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١]، والهشيم: ما يتهشم ويتفتت، والمحتظر: الذي يعمل الحظيرة، فالمعنى: أصبحوا كالهشيم الذي يتساقط من المحتظر أثناء عمله الحظيرة.

ومن مجموع الآيات نفهم أن الله سبحانه نجى صالحًا ومن آمن معه، وأهلك من تكبر عن قبول الحق وأصر على الكفر والجحود.

وقد أظهرت بعض السور -وهي تتحدث عن النهاية- نجاة صالح والمؤمنين وسكتت بعضها عن ذلك.

---

(١) الكشاف، للزمخشري، ج ٣، ص ٣٧٣.

وقد اختلف التعبير في الحديث عن النهاية عامة وحمل هذا الاختلاف بعض الإضافات، وتستطيع أن تلمح ذلك مما تقدم من المعاني التي عرضناها.

كذلك اختلف التعبير عن نوع العذاب أثناء الحديث عن النهاية، فسورة الأعراف تذكر أنه الرجفة، وسورة هود وسورة القمر تذكر كل منهما أنه الصيحة، أما سورة الشعراء، وسورة النمل فلم تصرح أي واحدة منهما بنوع العذاب، فسورة الشعراء تذكر أنه عذاب فقط، مطلق عذاب فتقول: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الشعراء: ١٥٨]، وسورة النمل تذكر النتيجة وهي: التدمير، وتستدل على هذا التدمير بخواء البيوت منهم فتقول: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾ [النمل: ٥١ –٥٢].

ويبدو أنَّ عذاب القوم كان بالصاعقة كما جاء في قوله تعالى من سورة فصلت: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت: ١٧]، وكما قال في سورة الذاريات: ﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٣ – ٤٤].

والصاعقة تصحبها أصوات قوية عاتية، ويصحبها زلزال ترجف به الأرض وتضطرب، ومن هنا عبر القرآن مرة بالصيحة، ومرة بالرجفة، ومرة ثالثة بالصاعقة.

وإلى هنا تنتهي القصة في كل السور التي عرضتها بتفصيل، ويبقى في سورة الأعراف حركة وكلمة صدرتا من صالح عليه السلام بعد نزول العذاب بالقوم، وتظهران في قوله سبحانه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩]، وتعتبر هذه الحركة والكلمة من الإضافات التي انفردت بها سورة الأعراف.

وقد يتسائل متسائل: كيف يصح خطاب الموتى؟

ويجاب بأنَّ مثل هذا يقال في أحوال الحزن على جهة التحسر والتفجع، فمن مات له صديق من جراء شرب الخمر، أو تعاطي المخدرات مثلًا، وكان ينصحه ليقلع عن ضلاله وانحرافه فلم يستمع إليه، قد يقول له - بعد أن يقف عليه وهو ميت -: كم نصحتك وكم حذرتك عاقبة ذلك؟! وهذا معهود في كلام العرب.

ومثل هذا صدر عن رسول الله ﷺ يوم بدر(١)، فقد روي أنَّ رسول الله ﷺ نادى بعض القتلى من المشركين بعد أن طرحوا في القليب، وقال في ندائه: « **يا فلان بن فلان، وفلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟، فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها -أو فيها- ؟ فقال رسول الله ﷺ: والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**»(٢).

---

(١) انظر تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ٨/ ٤٥١، وتفسير البحر المحيط، لأبي حيان، ٥/ ٣٣٢، وتفسير الكشاف، للزمخشري، ٢/ ٩٨.

(٢)صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، ٥/ ٧٦، حديث ٣٩٧٦.

القصة في مواضع الإيجاز :

لقد ذكرت القصة بإيجاز واختصار في سورة الحَجر، وسورة فصلت، وسورة الذاريات، وسورة النجم، وسورة الحاقة، وسورة الشمس.

وآيات القصة في تلك السور إشارات سريعة خاطفة أبرزت نهاية القوم ومصارعهم.

ويبدو أنَّ الغرض من القصة في تلك السور هو: إثارة بواعث الخوف من عذاب الله في نفوس المشركين؛ حتى يقلعوا عن ضلالهم، ويؤمنوا برسول الله ﷺ، ومن هنا كان العرض سريعا موجزًا يبرز النهاية الأليمة التي حلت بالمكذبين.

يقول صاحب الفن القصصي: «لنقرأ معًا هذه القصة - قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨ – ٢١].

ولنفكر فسنرى أنَّ القرآن قد تخلى عن كثير من التفصيلات فلم يذكر عن عاد شيئًا قبل التكذيب، وحتى عملية الإرسال نفسها قد تجاوز عنها، فلم يذكر عن هود شيئًا وهو الرسول الذي كذبه القوم، كما لم يذكر هنا صفة عاد ولم يتحدث عن بيوتها ومساكنها، ولم يذكر لنا شيئًا مما دار بين هود وقومه من جدل أو حوار، ترك كل هذا وأسرع إلى وصف العذاب. وهنا صوره صورة أدبية رائعة بألفاظ جزلة تهز العاطفة

وتستثير الانفعال وتأخذ مكانها من الأفئدة والألباب، فهناك الريح الصرصر، وهناك النحس المستمر، وهناك قوة الريح التي تنزع الناس وكأنهم أعجاز نخل منقعر.

فعل القرآن كل هذا لسبب بسيط هو أنه يريد في ذلك العهد أن يبث في نفوس المعاصرين للنبي ﷺ الخوف من العذاب، ويريد أن يريهم من الصور ما يجعل الخوف قويًا عنيفًا، ومن هنا اختار هذه الصورة واكتفى بها حتى لا يشغل الذهن عنها بغيرها، وحرص القرآن على أن يكون العذاب والخوف منه هو النتيجة التي يجب أن تقر في النفس وفي الفؤاد، ومن هنا بدأ القصة بذلك الاستفهام الذي يصوِّب إلى القلب السهام، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، وختمها أيضًا بالاستفهام نفسه، وكأنه يريد أن يصيب من الناس المقاتل.

وحرص القرآن في هذه السورة، وبعد عرضه لكل قصة من قصصها، على أن يلفت أهل مكة إلى موقفهم من النبي والقرآن، وإلى أنَّ هذا الموقف فيه ما فيه ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

فعل القرآن كل هذا؛ لأن قصص هذه السورة لم تنزل إلا للإنذار وللتخويف من العذاب...

ولقد فطن ابن الأثير إلى ذلك عندما قال في تعليقه على قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥ – ٣٦].

ألا ترى كيف حذف جواب الأمر في هذه الآية، فإنَّ تقديره: فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فذهبا إليهم فكذبوهما، فدمرناهم تدميرًا، فذكر حاشيتي القصة أولها وآخرها؛ لأنهما المقصود من القصة بطولها، أعني إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذبهم»(١).

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم، للدكتور/ محمد أحمد خلف الله، ١٣٨ وما بعدها، وانظر: المثل السائر لابن الأثير ٢/ ٢٣٧.

قصة لوط عليه السلام

من آيات القصة

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠ - ٨٤].

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٧٧ - ٨٣].

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ
﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ
﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ
تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ
أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا
تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ
﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا
سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا
لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٦٢ – ٧٧].

قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت
تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[الأنبياء: ٧٤ – ٧٥].

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟
يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠].

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ
رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ

﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١٦٠ – ١٧٥].

قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢٨ – ٣٥].

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٣ – ١٣٨].

قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣١ – ٣٧].

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٣ – ٥٥].

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٣٣ – ٤٠].

بين يدي القصة

لقد ذكرت قصة لوط بتفصيل في سورة الأعراف، وفي سورة الشعراء، وفى سورة النمل، وفي سورة العنكبوت. وذكرت بإيجاز في سورة الأنبياء، وفى سورة الفرقان، وفي سورة الصافات، وفي سورة الذاريات، وفي سورة النجم، وفي سورة القمر.

ومنهجنا هنا هو نفس المنهج الذي سرنا عليه في قصة صالح، ولكن الجديد أنَّ هناك مقطعًا من القصة تكرر في سورتي هود والحجر، وسنعقد مقارنة بين هذا المقطع أو هذه الحلقة في السورتين؛ حتى نقف على ما حمله كل عرض من إضافات. وذلك بعد أن ننتهي من عرض القصة في السور التي ذكرتها بتفصيل.

النداء الأول:

- تتحدث سورة الأعراف عن هذا النداء فتقول: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٠ – ٨١].

المعنى:

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ بدأ لوط نداءه بهذا الاستفهام الإنكاري، والاستفهام الإنكاري يحمل في طياته توبيخًا وتقريعًا -كما يقول العلماء-.

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ أنتم أول من ابتدع هذه الفاحشة، والعالمون جميعًا يشمئزون منها ويبتعدون عنها؛ لأنها لا توافق الطباع السليمة، أو الفطر المستقيمة.

وهذه الجملة استئناف يؤكد الإنكار عليهم، وعلى هذا فلوط عليه السلام قد أنكر عليهم إتيان هذه الفاحشة، ثم أكد هذا الإنكار ببيان أنهم أول من عملها.

و﴿مِنْ﴾، في قوله: ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ تفيد تأكيد النفي، وأنه عام يستغرق جميع البشر.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ كرر لوط الإنكار عليهم، وصرح بالفاحشة التي يرتكبونها بعد الإبهام.

وهذه الجملة استئناف بياني؛ لأنها فسرت وأوضحت نوع الفاحشة التي يرتكبونها والتي جاءت غامضة في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾، صحيح هي معروفة للمخاطبين، ولكن هناك فرق بين أن يذكرها مجملة أو مبهمة، وبين أن يذكرها واضحة صريحة.

والإتيان المراد به هنا: الاستمتاع والجماع، وقوله ﴿شَهْوَةً﴾، مفعول له، يعني لا حامل لكم على ذلك إلا مجرد الشهوة القذرة.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ هذا إضراب انتقالي من شيء إلى شيء، وليس إبطالا وإلغاء لما سبق من الإنكار عليهم، ومعناه: أنتم قوم أسرفتم في قضاء الشهوة من ناحية اختيار النوع الذي يؤتى[1].

- وتقول سورة الشعراء في هذا النداء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦١ - ١٦٦].

المعنى:

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ألا تخافون الله وتخشون عقابه إن لم تؤمنوا.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ لا أكذب ولا أخدع، ولا أزيد ولا أنقص شيئًا مما كلفت بنقله وتبليغه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ حدد لوط في هذا الأمر المتقي منه وهو الله سبحانه، وقد أفرد لوط في كلامه هذا الأمر بطاعته مع أنه داخل في الأمر بتقوى الله، تأكيدًا لهذا التكليف الذي كلفهم به.

---

(١) انظر فيما تقدم: التفسير الكبير، للرازي، والبحر المحيط، لأبي حيان، وتفسير سورة الأعراف، للكومي.

ويبدو أنَّ قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾، مترتب على قوله سبحانه: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾، فالفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، يعني: إذا كنت رسولًا من عند الله لا أكذب ولا أخدع، ولا أزيد ولا أنقص شيئًا مما كلفت به، فيجب عليكم أن تتقوا الله الذي أرسلني، وأن تطيعوني فيما أمركم به وأنهاكم عنه .

﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ بين لوط أنه لا يبتغي أجرًا على دعوته فأجره على الله وحده، ولعله بهذا يزيل خاطرًا وقع في نفوسهم، أو تصريحًا وُجِّهَ إليه.

﴿ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم ﴾، أتجامعون الذكران، وتتركون أزواجكم اللاتي خلقهن الله لذلك، وفي هذا دليل على أنهم كانوا لا يقربون نساءهم -في أغلب الأحيان- والآية الأولى استفهام إنكاري، والآية الثانية تأكيد لهذا الإنكار.

﴿ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴾ أنتم قوم تجاوزتم الحد في الظلم حيث اخترتم الذكور للإتيان، وهذا إضراب انتقالي أيضًا.

- وتتحدث سورة النمل عن هذا النداء فتقول: ﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ تَجۡهَلُونَ ﴾ [النمل: ٥٤ – ٥٥].

﴿ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ﴾ أتأتون الفاحشة وأنتم على علم بقبحها، وارتكاب الفاحشة مع العلم بالقبح أعظم ذنبًا من ارتكابها على جهل.

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ تكرير للإنكار وتصريح بالفاحشة بعد الإبهام.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ الجهل هنا بمعني السفه والطيش، وعلى هذا فكأنه يقول لهم: أنتم قوم سفهاء طائشون، والجملة إضراب انتقالي.

- وتأتي سورة العنكبوت فنرى نداءها على هذه الصورة: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت: ٢٨ - ٢٩].

المعنى:

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾ [العنكبوت: ٢٨، ٢٩] .. تقدم الحديث عن مثله أكثر من مرة.

﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ(١) ٱلْمُنكَرَ ﴾ هذا الخطاب الصادر من لوط عليه السلام يبين لنا أنَّ القوم كانوا لا يكتفون بارتكاب هذه الفاحشة مع بعض فقط، وإنما كانوا يغتصبون المارة من الغرباء، وكانوا أيضًا يباشرون ذلك في مجالسهم علانية. يرى بعضهم بعضًا على هذه الحال، فما أقبح هذا التبجح، وما أفظع هذا الاستهتار!

---

(١) النادي: اسم جنس يشمل مجالسهم التي يجتمعون فيها - وما أكثرها، ولا يسمى ناديًا إلا إذا كان فيه أهله. انظر: البحر المحيط، لأبي حيان، ٨/ ٣٣٣.

وقفة مع النداء:

يتفق النداء في السور كلها في أنَّ لوطًا أنكر على قومه إتيان الفاحشة المعروفة، وأنَّ كل إنكار صاحبه ما يؤكده، فإنكار لوط في سورة الأعراف: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ جاء مؤكدا بقوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾، وإنكاره في سورة الشعراء: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، جاء مؤكَّدًا بقوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ [الشعراء: ١٦٦]، وإنكاره في سورة النمل ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾، جاء مؤكدا بقوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، وإنكاره في سورة العنكبوت: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ جاء مؤكَّدًا بقوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

وقد تكرر الإنكار في كل السور ما عدا سورة الشعراء فإنها خلت من هذا التكرار، ويبدو أن إنكار لوط على قومه عدم التقوى في قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، قام مقام هذا التكرار، ومن هنا اختلف تعبير لوط في سورة الشعراء عن بقية السور من ناحية الإبهام والتصريح، فقد ذكر لوط في كل السور الفاحشة مبهمة في الإنكار الأول، ثم حدد في الإنكار الثاني نوع الفاحشة، أما سورة الشعراء، فقد جاء حديثه عن الفاحشة صريحًا محددًا منذ البداية؛ لعدم وجود الإنكار الثاني.

وقد حاول لوط بهذا النداء الذي يحمل الإنكار أن يصرف القوم عن هذا الخلق المذموم، وهذه أول قصة يعالج فيها رسول قضية خُلُقِيَّة.

وللقصص القرآني طريقة خاصة في تصوير الأشياء الخلقية.

• فهو مرة يعمد إلى النهي الصريح وذلك في حالات منها: أن يكون المنهي عنه من الأمور العادية التي تركزت في البيئة فأصبحت من العادات الاجتماعية المرذولة، وذلك كتطفيف الكيل، فقد نهى القرآن عن هذه العادة القبيحة في قصة من قصص شعيب.

ومنها تلك الأمور التي يقوم بها الناس ترضية لعاطفة أو استجابة لرغبة، وذلك كقعودهم بكل صراط يصدون عن سبيل الله من آمن به، وتلك تكررت في كثير من القصص، ووردت أيضًا في قصة شعيب.

ويمثل النوعين من النهي قصة شعيب في الأعراف قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥ – ٨٦].

* وهو مرة يعمد إلى التعجب أو إلى الاستفهام الإنكاري، وذلك أيضًا قد يكون في العادات القبيحة المرذولة التي استقرت في البيئة وأصبحت خلقًا عامًّا، وذلك كإتيان الذكور من العالمين في كل قصة ورد فيها اسم لوط...

* ثم هناك الطريقة العَرضية التي يعرض فيها القرآن أخلاق بعض الجماعات أو أخلاق بيئة من البيئات، وأكثر ما يكون هذا اللون في قصص موسى عليه السلام؛ إذ في ذلك القصص نجد تصويرا لأخلاق اليهود، كما نجد بعض لفتات لأخلاق المصريين[1].

فمثلًا في سورة البقرة يقول سبحانه في تصوير أخلاق اليهود في نقض العهد: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٩٩ - ١٠١].

وفي سورة الأعراف يقول سبحانه في تصوير أخلاق المصريين في نقض العهد: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠ - ١٣٦].

---

(١) المقصود: آل فرعون.

وفي سورة الزخرف وصفهم بالخفة والطيش في اتباع فرعون وعبادته، فوق وصفهم بنقض العهد، فقال: ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾(1)[الزخرف: ٤٩ -٥٤].

ومن الاختلاف في التعبير أيضًا مصاحبة حرف التأكيد للإنكار في المرة الأولى والثانية في سورة العنكبوت دون غيرها من السور التي أتت بالإنكار مرتين، والسور التي أتت بالإنكار مرتين هي السور السابقة كلها ما عدا سورة الشعراء -وقد تقدم ذلك - فهذه السور صاحب التأكيد فيها الإنكار الثاني فقط.

وقد كشف صاحب أسرار التكرار سر ذلك فقال: قوله: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ ﴾ [الأعراف: ٨٠] بالاستفهام، وهو استفهام تقريع وتوبيخ وإنكار، وقال بعده: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾، فزاد مع الاستفهام، ﴿إِنَّ﴾؛ لأن التقريع والتوبيخ والإنكار في الثاني أكثر، ومثله في النمل، ﴿أَتَأْتُونَ﴾، وبعده، ﴿ إِنَّكُمْ ﴾، وخالف في العنكبوت فصدر الاستفهام الإنكاري بحرف التأكيد في المرتين، فقال: ﴿إِنَّكُمْ

---

(١) انظر الفن القصصي في القرآن الكريم، للدكتور/ محمد أحمد خلف الله، ١٢٦، وما بعدها بتصرف.

﴿لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾، وقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾، وجمع بين ﴿إِنَّ﴾، و﴿أَئِنَّ﴾؛ وذلك لموافقة آخر القصة، فإنَّ في الآخر، ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾ ثم قال في نهاية كلامه: «فتأمل فيه فإنه صعب المستخرج».

ولعله يقصد كما قال محقق الكتاب أنَّ قصة لوط في السور المذكورة لم يأت الجزاء فيها مؤكدًا، ففي سورة الأعراف يقول الله: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣]، وفي سور النمل يقول سبحانه: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧]، أما سورة العنكبوت فقد جاء الجزاء فيها مؤكَّدًا، فقال سبحانه: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٣]، وقال: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[1] [العنكبوت: ٣٤].

وفوق هذا الاختلاف، فإننا نرى بعض الإضافات فنرى سورة الشعراء قد أضافت التوبيخ على عدم التقوى، وذلك قول لوط لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وأضافت تقديم لوط نفسه لهم بقوله: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، وأضافت الأمر بالتقوى، والأمر بطاعته هو، وأضافت أنه لا يبتغي أجرًا على دعوته...

---

(١) انظر: أسرار التكرار، للكرماني، ٧٦، وانظر: الهامش المحقق/ عبد القادر عطا ويلاحظ على كلام المؤلف: عامًا فيميع القصص الوارد في سورة الأعراف، حيث قال في التعليق على قول المؤلف: فإنه صعب المستخرج، قال: لأن جميع القصص المذكورة - يقصد ما في سورة الأعراف - لم يأت الجزاء فيها مؤكَّدًا، وأغلب الظن أنَّ الكلام خاص بقصة لوط وحدها.

وأضافت الدعوة إلى الإيمان والتوحيد، ويفهم ذلك من كل ما تقدم.
يقول صاحب المنار في تفسير قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾، «النَّسق الذي قبل هذا يقتضي أن يكون المعنى: وأرسلنا لوطًا -ولكن حذف هنا متعلق الإرسال وركنه الأول وهو توحيد العبادة، للعلم به مما قبله، ومما ذكر في غير هذه السورة»[1] ولعله يقصد ما جاء في سورة الشعراء، فإنها وحدها هي التي أفصحت عن ذلك.

وأضافت أنَّ القوم كانت لهم أزواج، وأنهم كانوا يتركونهن ولا يأتونهن -في أغلب الأحيان- وذلك قوله سبحانه ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ﴾»[2][الشعراء: ١٦٦].

وقد يقول قائل: إنَّ سورة الأعراف وسورة النمل قد أبرزت كلٌّ منهما ذلك فقد قالت سورة الأعراف: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [الأعراف: ٨١]، وقالت سورة النمل: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النمل: ٥٥]؟

ويجاب بأنَّ آية الأعراف وآية النمل لم تضف واحدة منهما النساء إلى الرجال كما فعلت سورة الشعراء، وعلى هذا فالإتيان يحتمل أن يكون للحث على الزواج فهو الطريق الطبيعي لقضاء الشهوة، ويحتمل

---

(١) تفسير المنار، ٨/ ٤٥٣.

(٢) انظر: البحر، لأبي حيان، ٧/ ٣٦١، وذكر صاحب روح المعاني أنه المراد بهذه الجملة - في بعض الآراء - ذمهم بترك ما خلق لهم وعدم الالتفات إليه بوجه من الوجوه فضلًا عن لإتيان. انظر: روح المعاني، للآلوسي، ١٠/ ١١٤.

أن تكون لبيان أنَّ القوم كانوا يتركون أزواجهم ولا يقربونهن أيضًا، وبهذا الاحتمال الأخير تتفق الآيتان مع آية الشعراء، ولكن رغم هذا الاتفاق، فإنَّ آية الأعراف وآية النمل جاء فيهما لفظ النساء مطلقًا بلا قيد، أما سورة الشعراء، فقد أضيف فيها لفظ الأزواج إلى الرجال، ومن هنا فإنَّ سورة الشعراء قد أضافت في تلك الحالة هذا التقييد الذي ضيق دائرة الإطلاق.

- وإذا كانت سورة الأعراف وسورة العنكبوت قد أظهرت كلٌّ منهما أنَّ أحدًا من العالمين لم يسبق قوم لوط إلى هذه الفاحشة، وذلك قول الله على لسان لوط في السورتين: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فإنَّ سورة النمل قد أضافت أنَّ القوم كانوا يرتكبون هذه الفاحشة وهم على علم بقبحها، وارتكاب الفاحشة مع العلم بالقبح أعظم ذنبًا من ارتكابها على جهل، وذلك قوله سبحانه على لسان لوط ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

ولعل السر في ذلك أنَّ سورة النمل تحكي ما جرى بين لوط وقومه في أول لقاء، وقد يؤيد هذا ما ذكره بعض العلماء من أنَّ سورة النمل نزلت قبل سورة الأعراف، أما كونها نزلت قبل سورة العنكبوت، فقد نقل ذلك عن الباحثين في علوم القرآن وما أكثرهم.

ومن هنا ناسب أن يبكِّتهم في أول لقاء على الفاحشة، ثم لا يكتفي بهذا، بل يعظم جرمهم فيها قبل أن يخبر عن سبقهم إليها.

فقال لهم في سورة النمل: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، أي تعلمون فحشها وشناعة قبحها، وهذه صفة ترجع إلى الفعلة نفسها، وقال في سورة

الأعراف وسورة العنكبوت: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وهذا وصف حقه أن يجيء بعد توفية الفاحشة حق وصفها في نفسها، فأخر ذكره إلى ما بعد ذلك، وقد خاطبهم لوط عليه السلام بذلك وبأكثر منه في مقامات إنكاره عليهم ودعائه لهم)[١].

• وإذا كانت سورة الأعراف قد وصفت القوم بأنهم مسرفون، ووصفتهم سورة الشعراء بأنهم عادون، وهما بمعنى واحد -حسب ما سبق- فإنَّ سورة النمل قد أضافت أنهم ضعفاء العقل والرأي وذلك قول الله تعالى على لسان لوط عليه السلام: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

ومن مجموع الأوصاف نستطيع أنَّ نقول: إن القوم أمام إصرارهم على ارتكاب هذه الفاحشة أصيبوا بفساد الطبع فأشربت قلوبهم حبها وتركوا الطريق الطبيعي لقضاء الشهوة[٢] وكرهوه رغم إرشادهم إليه، وأصيبوا أيضًا بفساد العقل فأصبحوا «لا يعرفون ضرر هذه الفاحشة في الجناية على النسل وعلى الصحة وعلى الفضيلة والآداب العامة»[٣].

• وأضافت سورة العنكبوت: أنَّ القوم كانوا لا يكتفون بارتكاب هذه الفاحشة مع بعض فقط، وإنما كانوا يغتصبون المارة من الغرباء، وأضافت أن القوم كانوا يباشرون هذا القذر في مجالسهم علانية يرى بعضهم بعضًا عليه، فما أقبح هذا التبجح وما أفظع هذا الاستهتار!

---

(١) درة التنزيل، للإسكافي، ١٦٤، وانظر: أيضًا ١٦٣.

(٢) هذا هو معنى كونهم مسرفين، وكونهم عادين.

(٣) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ٨/ ٤٥٥.

ولعل سر هذه الإضافة هو التدرج في الإنكار، فقد علمت أنَّ سورة العنكبوت هي آخر السور التي حكت قصة لوط بتفصيل نزولًا، ولعل الخطيب الإسكافي، يقصدها عندما قال: «وقد خاطبهم لوط عليه السلام بذلك وبأكثر منه في مقامات إنكاره عليهم ودعائه لهم»[1].

إجابة القوم:

- تتحدث سورة الأعراف عن هذه الإجابة فتقول: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

وهذه الآية تفصح عن محاورة دارت بين القوم وقال بعضهم لبعض فيها: «**أخرجوا لوطًا ومن آمن معه من قريتكم**[2] **التي تسكنونها؛ لأنهم أناس يتنزهون عن فعلنا ولا يقروننا عليه**»، وعلى هذا فجملة ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ تعليل للأمر بالإخراج.

ويستفاد من قولهم: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾، أنَّ القوم كانوا يسيطرون على البلد ويملكون أمرها، ويبدو أنَّ هؤلاء هم طبقة الرؤساء الذين استكبروا عن قبول الحق والإذعان له.

- وتتحدث سورة الشعراء عن هذه الإجابة فتقول: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء:١٦٧].

لقد هدد القوم لوطًا وأوعدوه أنه إن لم يكف عن دعواه النبوةَ، أو عن الإنكار عليهم فيما يفعلون لَيُخْرِجُونَهُ من بلدهم.

(١) روح المعاني، للآلوسي، ٢/ ٦٣٨.

(٢) القرية هي: سدوم وتقع بشرق الأردن، انظر: الكشاف، للزمخشري، ٢/ ١٢٦.

ويستفاد من قولهم: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾، فوق تحكمهم وسيطرتهم أنهم أخرجوا أناسًا قبل ذلك؛ لأنهم خالفوهم في أمر ما لم يفصح القرآن عنه[1].

- وتتحدث سورة النمل عن هذه الإجابة فتقول: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

ومعنى هذه الإجابة معنى إجابة سورة الأعراف، ويبدو أنَّ المحاورة التي دارت بين القوم هنا وفي سورة الأعراف حضرها لوط وفهم منها موقف القوم.

- وتأتي سورة العنكبوت فنراها تقول في الإجابة: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

وهذه الإجابة تفيد أنَّ القوم سألوا لوطًا أن يأتيهم بعذاب الله، وأنهم لا يصدقونه، لكن في أي شيء؟ لا يُظهر النص ذلك.

ومن الممكن أن نقول: إنَّ لوطًا توعدهم بالعذاب إن لم يقلعوا عن هذه الفاحشة بعد التوبيخ والإنكار، فردوا عليه بمقالتهم هذه التي تدل على عدم مبالاتهم، وعلى أنهم لا يصدقونه في توعده، ولقد طوى القرآن ذلك وجاء بما يدل عليه[2].

---

(١) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان، ٧/ ٣٦.

(٢) انظر: السابق.

من هذا العرض نستطيع أن نقول:

إنَّ سورة الأعراف وسورة الشعراء وسورة النمل تتفق إجاباتها في المضمون، وتفيد كلها أنَّ القوم كانوا يسيطرون على البلد ويملكون أمرها، ولكن سورة الشعراء تضيف فوق هذا أنَّ القوم أخرجوا مجموعة من الناس؛ لأنهم خالفوهم في أمر ما لم يفصح القرآن عنه. ولا نكاد نرى اختلافًا بين إجابة سورة الأعراف وسورة النمل. سوى أنَّ سورة النمل قد بينت أنَّ الضمير في قوله: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾، يعود إلى لوط عليه السلام ومن آمن معه[1]، ولنقرأ الآيتين مرة ثانية، تقول آية الأعراف: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

وتقول آية النمل: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

ويذكر صاحب أسرار التكرار السر في أنَّ سورة الأعراف هي التي اختصت بالضمير فيقول: «سورة النمل نزلت قبل هذه السورة -يقصد سورة الأعراف- فصرح في الأولى وكنى في الثانية»[2].

ومن الاختلاف في التعبير أيضًا أنَّ سورة الأعراف صدرت الآية فيها بالواو، أما سورة النمل وسورة العنكبوت، فقد صدرت آية كلٍّ منهما بالفاء.

---

(١) يقول صاحب البحر نقلًا عن ابن عطية: «الضمير عائد على آل لوط وأهله، وإن كان لم يجر لهم ذكر فإنَّ المعنى يقتضيهم»، انظر: البحر المحيط، لأبي حيان، ٥/ ١٠١.

(٢) أسرار التكرار، للكرماني، ٧٧، وانظر البحر المحيط، لأبي حيان، ٤/ ٣٣٤، وما ذكره «الكرماني» و «أبو حيان» يخالف ما قاله علماء علوم القرآن، انظر: الإتقان، للسيوطي، ١/ ١١.

وقد تحدث صاحب المنار عن سبب الإظهار والإضمار، وعن سبب اختلاف العطف، فقال: «فإن قيل: إنه لم يسبق ذكر لمن آمن معه فيعود إليهم ضمير، ﴿أَخْرِجُوهُم﴾.

قلنا: إنَّ هذا مما يعرف بالقرينة، وقد صرح به في آية النمل ففيها: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾، بدل أخرجوهم والباقي سواء، إلا العطف في أولها بالفاء كآية العنكبوت التي اختلف فيها الجواب وهي: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، والقرآن يفسر بعضه بعضًا، ومتى كان الكلام مفهومًا كان صحيحًا فصيحًا»[1].

ثم ذكر السر في اختلاف العطف فقال: «ما وجه بدء جملة الجواب بالواو تارة وبالفاء أخرى، وما وجه اختصاص كلٍّ منهما بموضعه؟

قلنا إنَّ عطف الجملة على ما قبلها بكلٍّ من: (الواو)، و(الفاء)، جائز، إلا أنَّ في (الفاء)، زيادة معنى؛ لأنها تفيد ربط ما بعدها بما قبلها بما يقتضي وجوب تلوِّه له، فهو جماع معانيها العامة من التعقيب والسببية وجزاء الشرط، والأصل العام في هذا الارتباط أن يكون ما بعد الفاء أثر الفعل وقع قبله، وكل من آيتي النمل والعنكبوت جاء بعد إسناد فعل إلى القوم، وهو قوله في الأولى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، وفي الثانية: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فلذلك عطف الجواب على ما بعدهما

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ٨/ ٤٥٦.

بالفاء، وأما آية الأعراف فقد جاءت بعد جملة اسمية وهي قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، وإسناد صفة الإسراف إليهم فيها مقصود بالذات دون ما قبله من فعل الفاحشة الذي كان بتكراره علة لهذه الصفة، وكان الإصرار عليه معلولًا لها»[1].

ونرى سورة العنكبوت تضيف أنَّ القوم قد طلبوا من لوط أن ينزل بهم عذاب الله، وتضيف استنتاجا أن لوطًا قد توعدهم بالعذاب. وهذا قول الله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

وقد بين صاحب المنار سر هذه الإضافة أثناء إجابته على سؤال قد يرد وتقديره: هل هناك تعارض بين الإجابة في سورة العنكبوت، وبين الإجابة في السور الثلاث؟[2] فقال: «قلنا: إنه لا تعارض ولا تنافي بين الجوابين؛ لحملهما على الوقوع في وقتين، ولا شك أنه كان ينهاهم كثيرًا، فكان يسمع في كل وقت كلامًا ممن حضر منهم، وقد قلنا: إنَّ قصص القرآن لم يقصد بها سرد حوادث التاريخ بل العبرة والموعظة، فيذكر في كل سورة من القصة الواحدة من المعاني والمواعظ مالا يذكر في الأخرى، ومجموعها هو كل ما أراد الله تعالى أن يعظ به هذه الأمة. فمن المعهود أنَّ الرسل عليهم السلام -وكذا غيرهم من الوعاظ الذين ينهون الضالين والمجرمين عن المنكر- يكررون لهم الوعظ بمعان متقاربة،

---

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ٨/ ٤٥٧، وانظر: أسرار التكرار، للكرماني ٧٧، ودرة التنزيل، للإسكافي، ١٦٢.

(٢) الإجابة في السور الثلاث واحدة.

ويسمعون منهم أجوبة متشابهة، وقد يقول بعضهم مالا يقول غيره فيعجبهم ويقرونه عليه فيسند إليهم كلهم، كما يسند إليهم فعل الواحد منهم إذا رضوه وأقروه عليه ولو بعد فعله، كما تقدم آنفًا في إسناد عقر الناقة إلى قوم صالح، وإنما عقرها واحد منهم، وقد حكى الله تعالى من قول رسوله لوط عليه السلام لقومه في سورة العنكبوت ما لم يحكه في سورتي الأعراف والنمل، فزاد على إتيانهم الرجال قطع السبيل، وإتيانهم المنكر في النادي الحافل، والمجلس الحاشد، فكأنهم ضاقوا به حينئذ ذرعًا واستعجلوه العذاب الذي أنذرهم إذا أصروا على عصيانه، وإلا ظهر أنَّ هذا كان بعد أمرهم بإخراجه، وأنَّ التوعد بالإخراج كان قبل الأمر به والله أعلم»[1].

وتنتهي المحاورة في سورتي الأعراف والنمل، ولكنها لا تنتهي في سورتي الشعراء والعنكبوت...

ففي سورة الشعراء يرد لوط على تهديد القوم له بالإخراج بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ[2] ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٨ - ١٦٩].

والآية الأولى تفيد أنَّ لوطًا لم يبال بتهديدهم، فأعلن اشمئزازه وكرهه لجريمتهم، ويقول المفسرون: إنَّ هذا القول أبلغ من أن يقال:

---

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ٨/ ٤٥٧، وانظر أسرار التكرار، للكرماني، ٧٧، ودرة التنزيل، لإسكافي، ١٦٢.

(٢) قوله: ﴿لِعَمَلِكُم﴾، متعلق بمحذوف دل عليه: ﴿ٱلْقَالِينَ﴾، والتقدير: إني من القالين لعملكم، وقوله: ﴿ٱلْقَالِينَ﴾، اسم فاعل ماضيه، قلى، ومضارعه يقلي، ومصدره (قلي)،.. انظر البحر المحيط، لأبي حيان.

«إني لعملكم قال»؛ وذلك لأن لفظة (قال) لا تفيد أكثر من تلبسه بالفعل، أما قوله: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾، فإنها تفيد فوق التلبس بالفعل أنَّ هناك أناسًا غيره يكرهون هذا الفعل، وهم الذين استقامت فطرتهم(١).

والآية الثانية بها تَوَجَّه لوط إلى الله سبحانه أن ينجيه وأهله مما يعملون، وقد يفهم منها أنَّ هذا دعاء أن يعصمه الله وأهله من هذا الانحراف والشذوذ، ولكن يعارضه أن الله يقول بعد ذلك: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٠-١٧٢]، فالمراد بالتنجية في قوله: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، التنجية من العذاب الذي نزل بالقوم، فلو كان المراد بدعاء لوط العصمة من الانحراف والشذوذ، تكون الإجابة مخالفة للدعاء. ولهذا نقول: إنَّ المراد بدعاء لوط هو طلب النجاة من عقوبة ما يعملون، فهو قد أحس أنَّ الله سيعاقبهم على فعلهم، فطلب النجاة له ولأهله من هذه العقوبة، وبهذا يتفق دعاء لوط مع إجابة الله سبحانه وتعالى(٢).

وعلى هذا فإنَّ سورة الشعراء قد أضافت هذا الرد الجديد، وهذا الدعاء الذي توجه به لوط إلى الله.

- وفي سورة العنكبوت أجاب هود القوم عندما طلبوا منه نزول العذاب بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]، وهذا الدعاء إضافة جديدة أضافتها سورة العنكبوت.

---

(١) انظر البحر، المحيط لأبي حيان، ٧/ ٣٦.

(٢) لصاحب البحر المحيط، رأي يخالف هذا فارجع إليه، ٧/ ٣٨.

والآية يفهم منها أنَّ لوطًا يئس من إيمانهم فطلب أن ينصره الله عليهم، ومراده بالنصر إنزال العذاب بهم، فكأنه قال: رب انصرني بإنزال العذاب على القوم المفسدين.

ويلاحظ أنَّ الأنبياء لا يدعون بإنزال العذاب، أو بالهلاك، إلا إذا علموا أنه لا خير في وجود الكفرة، وقد قال نوح قبل ذلك: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ – ٢٧]، فقد فهم نوح أنه لا خير في وجود هؤلاء الكفرة، بل فهم أنَّ وجودهم فيه خطورة على الناس، ومن هنا دعا بهلاكهم(١).

ويبدو أنَّ دعاء لوط على القوم صدر أمامهم، ومن هنا فإنه يعتبر إجابة عن طلب نزول العذاب.

الحديث عن النهاية في سورة الأعراف، والشعراء، والنمل:

- تتحدث سورة الأعراف عن النهاية فتقول: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣ – ٨٤].

- وتتحدث سورة الشعراء عن هذه النهاية فتقول: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٠ – ١٧٣].

---

(١) انظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي، ٣٠/ ٥٥٩.

• وتتحدث سورة النمل عن هذه النهاية فتقول: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٧ – ٥٨].

ومن استعراض الآيات السابقة نستطيع أنَّ نقول: إنَّ هذه الآيات تحدثت عن مصير المؤمنين أولًا، ثم تحدثت عن مصير الكافرين ثانيًا.

والحديث عن مصير المؤمنين بينت فيه الآيات كلها أنَّ الله سبحانه نجَّى لوطًا وأهله إلا امرأته، وعلى هذا فالآيات كلها تتفق في ذلك ولا نرى اختلافًا حول هذه النتيجة.

ونتساءل: ما المراد بلفظ (الأهل) الذي تكرر في السور الثلاث أثناء الحديث عن مصير المؤمنين؟

ويجاب بأنَّ الأهل يصح أن يطلق على كل من آمن به سواء أكانوا أهل بيته حقيقة أم لا، ولكن لأن لوطًا لم يؤمن به أحد من خارج بيته ودليل ذلك قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ – ٣٦]، نقول: إن الأهل المراد به أهل بيته الحقيقيين، ومن هنا استثنى الله منهم امرأته.

• ومع هذا الاتفاق فإننا نرى التعبير عن بقاء امرأة لوط في العذاب يختلف من سورة إلى سورة.

ففي سورة الأعراف يقول الله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣].

وفي سورة الشعراء يقول سبحانه: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧١]، وفي سورة النمل يقول ﷻ: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧].

• ويبدو أنَّ الاختلاف يظهر في أنَّ آية الأعراف عبرت عن عذابها بالماضي حيث قالت: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣]، يعني أنها عذبت فعلًا.

أما سورة الشعراء والنمل فقد عبرتا عن عذابها بالمستقبل، يعني أنها ستعذب ولما تعذب بعد؛ وذلك لأن آية الشعراء تقول: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧١]، والتقدير: «إلا عجوزًا مقدرًا كونها في الغابرين»(١)، وآية النمل تقول: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[الأعراف: ٨٣]، والتقدير: «إلا امرأته قدرنا كونها من الغابرين»(٢).

وعلى هذا نقول: إنَّ التعبير «بالمستقبل» هو الأصل؛ لأن الإهلاك كان بعد النجاة، فجاء بالأصل في بعض السور، وجاء بالماضي في بعض السور الأخرى؛ ليفيد تحقق الوقوع.

---

(١) يقول الفخر الرازي: «إن قيل: إن قوله: ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾، صفة لعجوز كأنه قيل: إلا عجوزًا غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم، أجيب بأنَّ المعنى إلا عجوزًا مقدرًا غبورها»، ج ٢٤، ص ٥٢٦.

(٢) يقول صاحب روح المعاني: «هذا التقدير يُحتَاج إليه؛ لأن تقدير الله يتعلق بالفعل لا بالذات - يعني لا يقال: «قدر الله فلانًا»، وإنما يقال: «قدر الله موت فلان أو نجاته». ولفظ الغابرين معناه: الباقين في العذاب، يقال غبر الشيء يغبر غبورًا أي: بقي، وقد يستعمل فيما مضى -أيضًا- فيكون من الأضداد، انظر: روح المعاني، للآلوسي، ٤/ ٤٠٩.

وفوق هذا الاختلاف فإننا نرى أنَّ سورة الشعراء قد أضافت أنَّ امرأة لوط كانت وقت نزول العذاب بها كبيرة السن، وأنها عتت في الكفر ودامت فيه إلى أن أهلكها الله على هذه الصورة.

- أما الحديث عن العذاب فقد تناول مصير الكافرين والعذاب الذي لحقهم، وتتفق الآيات في أنَّ العقاب الذي أهلكهم الله به إنما كان مطرا أرسله الله عليهم. وقد جاء مع كل نص ما يفيد أنَّ المطر ليس مطر رحمة، وإنما هو مطر عذاب، وقد اختلف التعبير عن هذه الدلالات في بعض السور، ففي سورة الأعراف يقول سبحانه: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ وفي سورة الشعراء يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾، ثم يقول: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾، وفي سورة النمل يقول ﷻ: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾.

وقد يتساءل متسائل: كيف يقول الله في سورة الشعراء: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾، ثم يقول بعد ذلك: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ والترتيب يقتضي العكس كما هو ظاهر؟

ويجاب بأنَّ القصص القرآني لا يُعنى بترتيب الأحداث كما وقعت فذلك شأن التاريخ، وإنما يعنى بغير ذلك، يقول صاحب المنار بعد أن انتهى من تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[البقرة: ٦٠].

إنَّ كثيرًا من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب في القصص، ويقولون مثلًا: إنَّ الاستسقاء وضرب الحجر كان قبل التيه، وقبل الأمر بدخول تلك القرية فذكر هنا بعد تلك الوقائع[1]، والجواب عن هذه الشبهة يفهم مما قلناه مرارًا في قصص الأنبياء والأمم الواردة في القرآن، وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها، وإنما المراد بهذا الاعتبار والعظة ببيان النعم متصلة بأسبابها؛ لتطلب بها، وبيان النقم بعللها؛ لتتقى من جهتها، ومتى كان هذا هو الغرض من السياق، فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع في الذكر على الوجه الذي يكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى التأثير. ثم يقول: إنَّ الباحثين في التاريخ لهذا العهد قد رجعوا إلى هذا الأسلوب في التقديم والتأخير وقالوا: ستأتي أيام يستحيل فيها ترتيب الحوادث والقصص بحسب تواريخها؛ لطول الزمن وكثرة النقل مع حاجة الناس إلى معرفة سير الماضين، وما كان لها من النتائج والآثار في حال الحاضرين، وقالوا: إنَّ الطريق إلى ذلك هو أن ننظر في كل حادثة من حوادث الكون كالثورات والحروب وغيرها ونبين أسبابها ونتائجها من غير تفصيل ولا تحديد لجزئيات الوقائع بالتاريخ، فإنَّ ترتيب الوقائع هو من الزينة في وضع التأليف فلا يتوقف عليه الاعتبار، بل ربما يصد عنه بما يكلِّف الذهن من ملاحظته وحفظه.

---

(١) ذهب الكثير من العلماء إلى أنَّ الاستسقاء وضرب الحجز كان في التيه لا قبله، ولا يهمنا مناقشة ذلك.

فهذا ضرب من ضروب الإصلاح العلمي جاء به القرآن وأيده سير الاجتماع في الإنسان[1].

وبعد أن استعرض بعض الآيات من قصة البقرة قال: «قال الأستاذ الإمام: جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذي لم يسبق إليه ولم يلحق فيه، فهو في هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين، ولا طريقة الكتاب في تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع حتى في القصة الواحدة، وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك الفكر إلى النظر تحريكًا، ويهز النفس للاعتبار هزًّا، وقد راعى في قصص بني إسرائيل أنواع المنن التي منحهم الله تعالى إياها، وضروب الكفران والفسوق التي قابلوها بها، وما كان في أثر كل ذلك من تأديبهم بالعقوبات، وابتلائهم بالحسنات والسيئات، وكيف كانوا يحدثون في أثر كل عقوبة توبة، ويحدث لهم في أثر كل توبة نعمة، ثم يعودون إلى بطرهم، وينقلبون إلى كفرهم؟»[2].

حلقة مكررة:

إذا كانت القصة قد انتهت في سورة الأعراف والشعراء والنمل، فإنها لم تنته في سورة العنكبوت، فبعد أن دعا لوط على القوم بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١/ ٢٧١.

(٢) السابق، ١/ ٢٨٧.

فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣١-٣٢].

﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعًا[١] وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ[٢] ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٣-٣٥].

ونترك الحديث عن مجيء الملائكة إلى إبراهيم، وعن حديثها معه في هذه السورة وفي غيرها، فهو لا يعنينا كثيرًا، وإذا نظرنا بعد ذلك إلى ما تبقى من القصة في السورة نرى أنه يبين لنا أنَّ الرسل جاءوا إلى لوط عليه السلام في صورة بشرية، فأصابه الغم والحزن بسبب مجيئهم؛ وذلك لأنه خاف أن يتعرض لهم القوم بسوء كما هي عادتهم مع الغرباء، وأحس لوط أنه عاجز عن احتمال ضيافتهم فاعتراه انقباض شديد وتضجر ظاهر، ولما رأى الرسل أمارات الضيق والحزن بادية عليه طمأنوه، ثم أخبروه بالمصير الذي ينتظر القوم.

ونستطيع أن نقول: إنَّ مقطع مجيء الملائكة إلى لوط وبعض حديثها معه يعتبر إضافة جديدة انفردت بها سورة العنكبوت عن سورة

---

(١) المعنى: ضاق صدره أي: انقبض، فالذرع كناية عن الصدر وضيقه كناية عن شدة الانقباض؛ انظر: روح المعاني، للأوسي، ١٢/ ١٠٥.

(٢) فرق المفسرون بين الخوف والحزن، بأن الخوف للمتوقع، والحزن للواقع، انظر: روح المعاني، للآلوسي، ١٠/ ٣٦٠، وحاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، ٧/ ٩٩.

الأعراف، وسورة الشعراء، وسورة النمل، كما أنَّ الحديث عن العذاب في هذا المقطع جاء بأسلوب جديد سنتحدث عنه فيما بعد.

ولكن مع هذا فإننا نرى هذه الإضافة التي انفردت بها سورة العنكبوت عن السور السابقة لا تعتبر إضافة بالنسبة إلى سور أخرى، فقد ذكرت هذه الحلقة وحدها من قصة لوط في سورتي هود، والحجر وبتفصيل أكثر، ومن هنا فإننا نترك هذه الحلقة أو هذا المقطع في سورة العنكبوت؛ حيث إنه ذكر بإيجاز أكملت به السورة بقية القصة.

ونمضي إلى سورة هود، وسورة الحجر فنعقد مقارنة بينهما؛ لنرى ما هي الإضافات التي حملتها كل سورة.

الحلقة في سورة هود:

يقول سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٧٧-٨٣].

المعنى:

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ هذه الآية تبين مدى ما أصاب لوطًا عليه السلام من الحزن عندما جاءته الملائكة في صورة بشرية، وتبين أنَّ لوطًا كشف عما اعتراه بقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾، أي، شديد الأذى.

﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ لما علم القوم بوجود أضياف عنده، جاءوا مسرعين كأن سائقًا يسوقهم، ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ٧٨][١].

يفهم من هذه الجملة أنَّ هؤلاء القوم قبل أنَّ يأتوا لوطًا كانوا على تلك السيئة في أنديتهم، فحمَّى الشذوذ الجنسي قد أصابتهم فارتكسوا فيها لا يتركونها إلا ليباشروها.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ رأى لوط في القوم السعار الجنسي المنحرف فحاول أن يوقظ فيهم الفطرة السليمة ويوجههم إلى الجنس الآخر الذي خلقه الله للرجال؛ حتى ينصرفوا.

«والظاهر أنه يأمرهم في هذه الحال الذي هاجت فيه شهوتهم واشتد شبقهم، أن يأتوا نساءهم كما ورد في الإرشاد النبوي لمن رأى امرأة أعجبته أن يأتي امرأته في تلك الحالة التي هاجته فيها رؤيتها»[٢].

---

(١) قال صاحب البحر: إما باعتبار فاعليها، أو باعتبار تكررها، ٦/ ١٨٦.

(٢) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١٢/ ١٣٤.

ومعنى ﴿أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: أنظف من هذا القذر، وأفعل التفضيل على غير بابه[١].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ حاول لوط في هذه المرة أن يثير فيهم جانب الخوف من الله، وجانب النخوة؛ حتى ينصرفوا أيضًا، فأمرهم بتقوى الله، ونهاهم عن إخزائه في ضيفه، فإنَّ إخزاء الضيف إخزاء للمضيف.

﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ «ذو رشد يعقل هذا فيرشدكم إليه»[٢].

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أجاب القوم في تبجح فأعلنوا أنه ليست لهم حاجة إلى أزواجهم اللائي ينسبهن إليه، ويسميهن بناته.

﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إشارة خبيثة إلى العمل الخبيث.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أحس لوط إصرار القوم، وأحس مع هذا الإصرار بضعفه فاتجه إلى الأضياف يقول لهم: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ [هود: ٨٠]، يعني: لو أنكم تكونون قوة أتقوى بها على القتال لقاتلتهم، ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، أو لو كان لي ملجأ قوي من أصحاب العصبيات أحتمي به من هذا التهديد.

ولقد صدرت هذه الكلمة الأخيرة من لوط في وقت الضيق والشدة، وفي ساعة إحساسه بالضعف والعجز، فعبرت عن هذا التمني، وغاب عن لوط

(١) المراد به: المبالغة في الطهر.

(٢) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١٢/ ١٣٥.

أنه يأوي إلى ركن الله الذي لا يتخلى عن أوليائه[١]، وقد كشف رسول الله ﷺ ذلك فقال: «**رحم الله تعالى أخي لوطًا كان يأوي إلى ركن شديد**»[٢].

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ لما رأى الأضياف ما أصاب لوطًا من الكرب والشدة كشفوا له عن حقيقة أمرهم فقالوا له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾، أي لن يصيبوك بسوء، ومن باب أولى لن يصلوا إلينا.

ثم ألقوا إليه تعليماتهم فقالوا: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ﴾.

ثم بينوا وقت نزول العذاب فقالوا: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ ويكشف القرآن عن الخاتمة فيقول: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾[٣].

الحلقة في سورة الحجر:

يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ

---

(١) ذهب صاحب البحر إلى أنَّ (أو) بمعنى «بل»، وعلى هذا يكون لوط عليه السلام قد أضرب عن الجملة السابقة وقال: بل آوي إلى ركن شديد، ويقصد به الله ﷻ انظر: البحر المحيط، لأبي حيان، ج ٦، ص ١٨٨، ولكن ما في الأحاديث الصحيحة تأبى ذلك. انظر: البحر المحيط، لأبي حيان، وروح المعاني، للآلوسي، والحديث متفق عليه.

(٢) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله ﷻ: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، ٤/ ١٤٧، حديث ٣٣٧٢.

(٣) سنقف على معنى هذه الآية والآية التي قبلها بتفصيل أكثر فيما بعد.

﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ
تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ
أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا
تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ
﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا
سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا
لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٦١ – ٧٧].

المعنى:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ جاء الملائكة في صورة أضياف إلى لوط، فلما رآهم قال لهم على الفور: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، «لستم معروفين»[(١)]، ولعل لوطًا قصد من وراء ذلك أن يفهمهم عادة القوم مع الغرباء الذين لا يعرفونهم.

﴿ قَالُوا۟ بَلْ[(٢)] جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ كشفوا له عن حقيقة أمرهم بهذا القول، ومعناه: جئناك بالعذاب الذي كنت تتوعدهم به ويشكُّون في وقوعه.

﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ أتيناك بالخبر الحق، وإنا لصادقون في كل خبر فنحن صادقون في هذا[(٣)]، ثم ألقوا إليه

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٣٨.

(٢) ﴿بَلْ﴾، إضراب عن قول محذوف أي جئناك بشيء تخافه بل جئناك بالعذاب الذي كانوا يشكون في وقوعه. انظر: البحر المحيط، لأبي حيان.

(٣) انظر: روح المعاني، للآلوسي، ١٤/ ٦٨، واعلم أنه يجوز وصف الخبر بالحق وإن كان الأكثر وصفه بالصدق.

تعليماتهم فقالوا: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾.

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ قضينا إليه ذلك الأمر الخطير، ثم فسره بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾.

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ جاءوا فرحين مسرورين، وهذه الجملة تبين موقف القوم عندما علموا بوجود أضياف عند لوط.

﴿ قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ حاول لوط أن يصرفهم فخوفهم من الله، ونهاهم عن إخزائه في ضيفه. وكرر ذلك النهي، وعبر عنه تارة بالإخزاء وتارة بالفضيحة، وكلاهما بمعنى واحد.

﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ يبدو أنَّ لوطًا عليه السلام كان يحاول أن يمنعهم من التعرض للغرباء، فكانوا ينهونه عن ذلك.

﴿قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴾ عرض عليهم بناته إن كانوا يريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله.

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ذهب بعض المفسرين إلى أنَّ معنى الآية أن الملائكة أقسمت بحياة لوط أنَّ قومه متحيرون في الضلالة فلا يستطيعون معها إدراك الحق، أو الاهتداء إليه[١]، ونحن نرجح هذا.

---

(١) انظر: روح المعاني، للآلوسي، ١٤/ ٧٢.

ثم تتحدث السورة عن النهاية فتقول:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

المقارنة والإضافات:

(أ) تصوير موقف القوم في السورتين:

تبين سورة هود أنَّ القوم عندما علموا بوجود أضياف عند لوط جاءوا مسرعين تسوقهم الشهوة ويدفعهم السعار الجنسي المنحرف.

أما سورة الحجر فإنها تبين أنهم جاءوا فرحين مسرورين.

ومن مجموع النصين نفهم أنَّ القوم جاءوا مسرعين تسوقهم الشهوة، وأنهم كانوا فرحين مسرورين أثناء قدومهم؛ لتخيلهم قضاء شهوتهم، ومن كان هذا حاله لا يثور فيه شعور بالذنب أو إحساس بالخطأ.

وتأتي سورة هود فتضيف -وهي تصور موقف القوم- أنَّ هؤلاء الناس كانوا يرتكبون هذه الفاحشة دائمًا فهم لا يتركونها إلا ليباشروها، وذلك قول الله: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ٧٨].

(ب) المحاورة بين لوط وبين قومه:

تجمهر القوم على باب لوط ودارت بينهم وبينه محاورة، وقد تقدمت آيات المحاورة في السورتين.

ونرى هذه المحاورة تتفق في أنَّ لوطًا عليه السلام عرض على القوم بناته، وأثار فيهم جانب الخوف من الله، وجانب النخوة.

وتضيف سورة هود هذا التوبيخ والإنكار: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]؟، وقد وجهه لوط لقومه عندما أجمعوا على فعل الفاحشة، ولم يجد منهم ذا عقل يمنعهم.

وتضيف سورة الحجر تكرار النهي عن الفضيحة أو عن الإخزاء، فقد ورد النهي عن الإخزاء في سورة هود مرة واحدة، ولكنه جاء في سورة الحجر مرتين.

وإذا كانت سورة هود قد أضافت أنَّ لوطًا قد وبخ قومه، فإنَّ سورة الحجر قد أضافت العكس، فأضافت أنَّ القوم هم الذين وبخوا لوطا، وذلك قولهم: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[الحجر: ٧٠] فالمعنى ألم نحذرك من التدخل إذا قصدنا أحدًا من الغرباء وأردناه؟ ويفهم من هذا أنَّ لوطًا كان يباشر مهمة النصح لقومه عندما يراهم يتعرضون للغرباء، وأنَّ قومه كانوا ينهونه عن ذلك.

وتضيف سورة هود أيضًا إعلان القوم عدم حاجتهم إلى النساء وأنَّ ميولهم لا تهفو إلا إلى الرجال، وذلك قولهم: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩].

(ج) تصوير حالة لوط النفسية:

تظهر بداية الحلقة في سورة هود حالة لوط النفسية عندما جاءه الأضياف فقد بينت أنه قد أصابه حزن وضيق، وأنه عبر عما أصابه بقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧].

ومرة ثانية أظهرت الحلقة حالة لوط النفسية بعد أن تجمهر القوم على بابه. عندما حكت أنه قال لأضيافه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٨٠]، و إبراز الحالة النفسية يعتبر إضافة أضافتها سورة هود وانفردت بها. وقد يقول قائل: ألا يدل قول الله على لسان لوط لأضيافه: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٞ مُّنكَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٢] على تصوير حالته النفسية، فهذه الجملة قد يفهم منها أنَّ لوطًا ضاق صدره عندما رآهم؛ لتوقع الأذى بسببهم؟

ويجاب بأنَّ هذا صحيح، وفوق ذلك فهناك كثير من الإشارات في سورة الحجر تدل على تصوير حالة لوط النفسية، ومنها: قوله للقوم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾ [الحجر: ٦٨ – ٦٩]، ويعتبر هذا القول قدرًا مشتركًا بين سورتي هود والحجر بصرف النظر عن تكرار النهي عن الإخزاء، فهذا القول يفيد ضيق لوط وحزنه، ومنها: التوكيدات التي جاءت في قول الأضياف له: ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ۝٦٣ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الحجر: ٦٣ – ٦٤]، فهذه التوكيدات كلها تصور لنا جزع لوط وكربه وهو في حيرة بين واجبه لضيفه عن حمايتهم في وجه قومه، فجاءه التوكيد بعد التوكيد، لإدخال الطمأنينة عليه قبل إلقاء الوحي إليه، ولكن رغم هذا فإننا نقول: إنَّ سورة هود قد أبرزت تصوير الحالة النفسية بصريح العبارة مرة في أول الحلقة عندما حكت قوله: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ [هود: ٧٧]،

ومرة أخرى عندما حكت قوله لأضيافه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، ومرة ثالثة عندما قالت: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: ٧٧]، وهذه المرة لا تعتبر إضافة؛ لأنها جاءت في سورة العنكبوت، أما سورة الحجر فقد أفادت ذلك بالفحوى والمضمون.

(د) تطمين الملائكة للوط:

في سورة هود طمأنت الملائكة لوطًا عليه السلام بقولهم: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١].

وفي سورة الحجر طمأنت الملائكة لوطًا بقولها: ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الحجر: ٦٣ - ٦٤].

ونرى أنَّ التطمين في سورة هود جاء في صورة التصريح بنجاته من القوم.

أما التطمين في سورة الحجر فقد جاء في صورة إنزال العذاب عليهم، وعلى هذا ففي كلٍّ ما ليس في الآخر.

(هـ) التعليمات التي صدرت من الملائكة:

من خلال حديث الملائكة مع لوط نرى أنَّ هناك مجموعة من التعليمات وجهتها الملائكة إلى لوط من الحلقتين، تتحقق نجاته بتنفيذها.

- ففي سورة الحجر تقول الملائكة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥].

- وفي سورة هود تقول الملائكة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [هود: ٨١].

ومعنى قوله سبحانه على لسان الملائكة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ٨١]، الذي تكرر في الحلقتين: أسر بأهلك بجزء من الليل قبل أن يطلع الصباح، وقد كثرت أقوال المفسرين حول تحديد هذا الجزء، فمن قائل: إنه نصفه، ومن قائل: إنه آخره، ومن قائل إنه بعد مضي صدر منه.

ومعنى قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود: ٨١] الذي تكرر في الحلقتين أيضًا:

النهي عن الالتفات الحقيقي؛ فإنَّ المهاجر قد يحن وهو خارج إلى الديار فيتلفت وراءه يجدد الشوق والذكرى، فنهوا عن ذلك؛ حتى لا يبطئوا[1].

ونرى بعد هذا الاتفاق أن سورة الحجر قد أضافت بعض التعليمات وانفردت بها عن سورة هود، فقد جاء فيها قول الملائكة للوط عليه السلام: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥]، وهذا ما لا يوجد في سورة هود، ومعناه: سر في مؤخرتهم حتى تضمن ألا يتخلف أحد أو يتلكأ.

---

(١) انظر: روح المعاني، للآلوسي، ١٤ / ٦٩، وهناك آراء أخرى تركناها، ويلاحظ أنَّ النهي عن الالتفات موجه في اللفظ لأحد، وفي المعنى للوط عليه السلام، والمعنى على هذا: فأسر بأهلك ولا تدع أحدًا منهم يلتفت.

ونرى ثانية أنَّ سورة الحجر قد أضافت قول الملائكة: ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾، وهذا ما لا يوجد في سورة هود، ولا شك أنَّ الملائكة حددت له المكان الذي ينزل فيه، فكأنها أضافت تحديد المكان.

أما سورة هود فقد أضافت هذا الاستثناء وانفردت به عن سورة الحجر، وهو قوله سبحانه على لسان الملائكة: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ [هود: ٨١].

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنَّ هذا الاستثناء منقطع «لا يقصد به إخراجها من المأمور بالإسراء بهم، ولا من المنهيين عن الالتفات، ولكن استؤنف الإخبار عنها، فالمعنى لكن امرأتك يجري لها كذا وكذا، ويؤيد هذا المعنى أنَّ مثل هذه الآية جاءت في سورة الحجر وليس فيها استثناء، قال تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥]، فلم تقع العناية في ذلك إلا بذكر من أنجاهم الله تعالى، فجاء شرح حال امرأته في سورة هود تبعا لا مقصودا بالإخراج مما تقدم[١]».

(و) موعد نزول العذاب:

تتحدث حلقة سورة هود عن موعد العذاب فتقول: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ [هود: ٨١].

وتتحدث حلقة سورة الحجر عن ذلك فتقول: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦].

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان، ٦/ ١٩٠.

وتتفق الآيتان في أنَّ كلًّا منهما قد حددت وقت نزول العذاب وأنه الصبح، وقد جاء الأسلوب في سورة الحجر يفيد تعظيم هذا العذاب فقد قال الله فيها: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٦]، فهذه الجملة يستفاد منها أنَّ الأمر الذي سيوحى إلى لوط جد خطير، ثم فسره بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾، فأفاد التفسير أنه فعلًا خطير.

وفوق هذا الاختلاف في الأسلوب نرى أنَّ سورة هود تضيف هذا السؤال الذي وجهته الملائكة إلى لوط بعد أن حددت له وقت نزول العذاب وهو: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؟ [هود: ٨١].

ويبدو أنهم لا يريدون إجابة عليه وإنما يريدون إنعاش نفسه بقرب موعد الهلاك.

وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ السبب في هذا السؤال أنَّ الملائكة بعد أن قالوا له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١]، قال أريد أسرع من ذلك، فقالت الملائكة: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ يعني: إنه قريب فلا تتعجل[١].

وعلى هذا فسورة هود تضيف بهذا السؤال استعجال لوط لنزول العذاب بالقوم، وأنَّ الملائكة بينت له أنَّ الموعد قريب فلا داعي للتعجل.

وعلى الرأي الأول يكون الغرض إنعاش نفسه، ونحن نرجح هذا؛ لأنه يناسب ما ذكر في السورة من تصوير حالته النفسية، وفوق هذا فالرأي الثاني يحتاج إلى توقيف.

---

(١) البحر المحيط، لأبي حيان، ٦/ ٢٠٣.

ويلاحظ أنَّ سورة الحجر قد بينت أنَّ العذاب نزل بهم فعلًا وقت شروق الشمس، وذلك قول الله سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣]، أي داخلين في وقت شروق الشمس.

وقد يقول قائل: كيف يقول الله في سورة هود: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾، وهذا القول يفيد أنَّ العذاب سينزل بهم في الصباح، وكذلك يقول في سورة الحجر: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]، وهذا القول يفيد أنَّ العذاب سينزل بهم عند دخولهم في الصباح وقبل أن تشرق الشمس. أليس هناك تناقض بين هذين القولين، وبين قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾، الذي يفيد أنَّ العذاب نزل بهم وقت الشروق؟

ويجاب بأن ابتداء العذاب كان عند طلوع الصبح وأنه امتد إلى شروق الشمس، فكأن تمام الهلاك كان عند ذلك[1].

ونرى في حديث الملائكة مع لوط في سورة الحجر هذه الإضافة الجديدة التي لا توجد في سورة هود وهي قوله سبحانه على لسان الملائكة:

﴿لَعَمْرُكَ[2] إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ[3] يَعْمَهُونَ﴾، وهذه الإضافة عبارة عن قسم وجوابه، لكن متى صدر هذا القسم؟

(١) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان، ٦/ ٢٠٣، روح المعاني، للآلوسي، ٦/ ٣٠٨، وتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١٢/ ١١٢، ١١٣، وابن كثير: ١٤/ ٢٩١.

(٢) العمر بالفتح والضم: مدة الحياة، إلا أنهم التزموا الفتح من القسم وهو مبتدأ، والخبر محذوف وجوبًا تقديره: قسمي أو يميني، ويجوز أن يضاف إلى الله، قال الشاعر:

إذا رضيت على بنو قشير لعمر الله أعجبني رضاها

وذهب بعضهم إلى أنه لا يجوز؛ لأنه يوهم أنَّ العمر لا يقال إلا فيما له انقطاع، ولكن ذلك مردود؛ لأن العمر قد يطلق على الحياة والبقاء.

(٣) السكرة: كناية عن الضلالة، والمعنى هم في ضلالتهم متحيرون لا يستطيعون إدراك الحق.

يبدو أنه صدر من الملائكة بعد أن عرض لوط على القوم بناته، وبعد أن شاهدوا رفضهم وعدم قبولهم لهذا العرض، فهم يصورون بهذا القسم انحرافهم الذي لا يرجى معه صلاح.

(ز) العذاب وكيفيته:

- لقد تحدثت سورة الأعراف، وسورة الشعراء، وسورة النمل، وسورة العنكبوت عن العذاب وكيفيته، فالحديث عن العذاب في الحلقة الجديدة في سورتي هود والحجر ليس جديدًا مثلها، ولكن رغم ذلك فقد جاء الحديث عن العذاب وكيفيته فيها في السورتين تفصيل أكثر من السور السابقة.

وقد تحدثنا عن العذاب في سورة الأعراف، والشعراء، والنمل، وقلنا: إن الآيات تتفق في أنَّ العقاب الذي أهلكهم الله به، إنما كان مطرًا أرسله الله عليهم وقد جاء مع كل نص ما يفيد أنَّ المطر ليس مطر رحمة وإنما هو مطر عذاب، وقد اختلف التعبير عن هذه الدلالات في بعض السور، ففي سورة الأعراف يقول سبحانه: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]، وفي سورة الشعراء يقول سبحانه ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٢]، ثم يقول: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣]، وفي سورة النمل يقول عز وجل: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨].

- وتأتي سورة العنكبوت فتتحدث عن العذاب بأسلوب آخر، فتترك التعبير عنه بالمطر، وتعبر عنه بالرجز فتقول: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ

أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤]، ونستطيع أن نفهم من هذه الآية مدى ما أصاب القوم من اضطراب وقلق وحيرة عند نزول العذاب، فهي تكشف نهاية القوم، وتكشف معها شيئًا من الأجواء الداخلية للقوم عند نزول العذاب، فقد قال المفسرون: إنَّ الرجز هو العذاب الذي يزعج المعذب ويجعله في قلق واضطراب.

- ونتقل إلى الحلقة في سورة هود وسورة الحجر فنراها في سورة الحجر تقول: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

ونراها في سورة الحجر تقول: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٤-٧٧].

ومن آيات الحلقة في السورتين نفهم أنَّ الله سبحانه دمر هذه القرية وقلبها رأسًا على عقب ويقول بعض الباحثين: «ويغلب أنها ظاهرة بركانية قلبت المدينة وابتلعتها».

ونتساءل: هل أمطرت السماء حجارة فعلًا؟

يبدو أنَّ ظاهرة البركان يصاحبها أحيانًا تناثر حمم وأحجار من باطن الأرض، وإذا كان الله سبحانه قد بين في هذه الحلقة أنه أسقط عليهم،

حجارة من السماء، فهذا البيان يكشف لنا أنَّ هذه الحادثة صاحبها فعلًا تناثر أحجار من باطن الأرض، أما كيف نزلت عليهم من السماء؟ فإننا نقول: إن الله سبحانه أرسل ريحًا فحملت هذه الحجارة، ثم رفعتها وأسقطتها عليهم[١].

ويبدو أنَّ هذه الحجارة كانت ملوثة بطين الأرض؛ لأن الله سبحانه يقول عنها: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾، والسجيل: «حجر وطين»[٢]، ويبدو أنَّ الطين كان يغطي هذه الحجارة؛ فالله سبحانه وتعالى يقول في سورة الذاريات ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]، ولعل السبب في هذا المطر مع العذاب أن لا ينجو الشذاذ المتفرقون[٣].

ومع هذا الاتفاق فإننا نرى أنَّ حلقة سورة هود انفردت بوصفين للحجارة، فقد بينت أنها ليست حجارة متقطعة، وإنما هي حجارة متلاحقة متتابعة كالمطر، ويكفي في تصور منظرها في التلاحق والتتابع أن تقرأ قول الله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾، وأن تفهم معنى: «منضود». فمعنى «منضود»: متراكب يلحق بعضه بعضًا كالأمطار، أو يكفي في ذلك أن تتصور المطر وأنت تقرأ هذه الآية.

وبينت ثانيًا أنَّ هذه الحجارة كأنها معلمة عند الله فهي لا تخطئ أهلها، ولا تصيب غيرهم، وذلك قول الله، ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾[هود: ٨٣].

(١) انظر: تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا.

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان، ٥/ ٢٥٠.

(٣) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١٢/ ١١٣.

(ح) اختلاف العرض والأسلوب:

- لقد اختلف العرض في الحلقة في السورتين؛ ففي سورة الحجر قدمت الحلقة كشف الملائكة عن نفسها وتطمينها للوط عليه السلام. وتعليماتها التي ألقتها إليه على الحوار الذي جرى بينه وبين أهل المدينة، والترتيب الطبيعي لهذه الحلقة أن يذكر بعد المحاورة كما جاء في سورة هود، وقد تنبه لهذا صاحب الفن القصصي فقال بعد أن استعرض آيات الحلقة في السورتين: انظر فستجد القصة في سورة هود جرت على هذا الأساس: مجيء الملائكة، ثم حال لوط واضطرابه النفسي، ثم مجيء القوم، ثم موقفه منهم وعرضه لبناته؛ حتى لا يخزى في ضيفه، ثم ردهم عليه وعزمهم على المضي فيما جاءوا من أجله، ثم موقف الملائكة وإخبارهم لوطًا بأنهم رسل ربه ونصحهم له بالسرى وإخبارهم له بأن العذاب نازل وأنَّ موعدهم الصبح.

وهكذا تجري القصة وقد رتبت وقائعها على أساس يشعر بأنَّ الزمن هو المحور الذي يربط هذه الوقائع المختارة وتلك الأحداث المنتقاة من حياة لوط عليه السلام. كما تجرى المحاورة بينه وبين قومه على أساس من المنطق النظري؛ إذ تدور بينه وبين قومه قبل أنَّ يعرف أن ضيفه هم رسل ربه.

وستجد القصة في سورة الحجر تجري على نسق آخر؛ إذ تعلمه الملائكة أنهم رسل ربه وتنصح له بالسُّرَى وتنبئه بما سيحل بالقرية وأهلها من عذاب قبل أن يجيئه قومه، ويكون بينهم وبينه ذلك الحوار.

إنَّ المحاورة في قصة الحجر تدور بينه وبين قومه بعد أن عرف أنَّ ضيفه هم رسل ربه وأنهم لن يصابوا بسوء. ويشعرنا هذا الصنيع بأنَّ تسلسل هذه الأحداث لا يقوم على الترتيب الزمني ولا على أساس من التسلسل المنطقي الذي كان من الممكن أن يكون ذلك؛ لأن العقل يجيز أنَّ لوطًا وقد عرف أنَّ ضيفه هم رسل ربه وأنهم من الملائكة لا يخشى شيئًا ولا يخاف عليهم من قومه، ومن هنا لا يعرِّض بناته لأذى أو مكروه، لكن القرآن خالف بين القصتين وجرى على نهجين مختلفين في البناء والتركيب[1].

- كذلك اختلف الأسلوب في الحلقة في السورتين، وقد سبق الحديث عن هذا الاختلاف، وقد تنبه إلى هذا أيضًا صاحب الفن القصصي فقال: «انظر في هذه المواد الواردة في القصتين فتجد في الأولى: وجاءه قومه، وفي الثانية: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾، وتجد في الأولى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾، وقال في الثانية: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾، فحذف الحديث عن الطهر وحذف المنادى وهو القوم. وقال في الأولى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾، وقال في الثانية: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾، من غير سؤالهم ذلك السؤال الذي يدل على الضيق بهم والأسى والأسف أن وقفوا منه هذا الموقف وهو قوله: ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾»[2].

---

(١) الفن القصصي في القرآن للدكتور/ محمد أحمد خلف الله، ١٤٢، ١٤٣.

وأظهر ما نجده من اختلاف في الأسلوب هذه الألفاظ التي تدل على العطف والحنان، والتي تدل على حرص لوط على هداية قومه، فقد ظهرت هذ الألفاظ في سورة هود، ولم تظهر في سورة الحجر، فنرى في سورة هود: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾.

فالعبارة الأولى والثانية جاء فيها ما يدل على العطف، وعلى حرصه على هداية قومه، حيث أظهرت العبارة الأولى الصلة بينه وبين الكفار وأنهم قومه، وأظهرت العبارة الثانية المعنى نفسه في ندائه لهم، وهذه الصلة تقتضي أن يكون بارًا بهم عطوفًا عليهم حريصًا على هدايتهم، ونرى في سورة الحجر يدل قوله: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾، ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾.. «كأن الأمر لا يعني لوطًا، وكأنه لن يحزن أو يأسف على ما ينزل بهم من عذاب، وكأن قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾، بدل قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ الذي يدل على حرصه على إبعادهم عن الضلال وترغيبهم عن ضيفه[1] فكأنه قد ضاق بهم إلى الحد الذي يجعله غير مهتم بهم من حيث الترغيب والتنفير، وخلت سورة الحجر من قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، من أجل هذا.

ونتساءل ما هو السر في اختلاف العرض والأسلوب؟

ويجاب بأنَّ سر هذا الاختلاف قد يرجع إلى اختلاف الغرض من القصة في السورتين.

ويبدو أنَّ الغرض من القصة في سورة هود هو إزالة ما قد يصيب رسول الله ﷺ من يأس أو قنوط من جراء السخرية والإيذاء والإعراض،

---

(١) الفن القصصي، في القرآن للدكتور/ محمد أحمد خلف الله، ٢٧٦، / ٢٧٧ بتصرف.

بتصوير ما أصاب الرسل قبله وبتصوير حرصهم -في الوقت نفسه- على هداية الناس، ولعل هذا هو الغرض من قصص سورة هود عامة.

ويبدو أنَّ الرسول ﷺ في تلك الفترة التي نزلت فيها سورة هود كان يعاني من الضيق والأحزان الشيء الكثير، من جراء السخرية والإيذاء والإعراض، ولقد صورت أول السورة حالة رسول الله ﷺ النفسية ومدى ما كان يعانيه فقالت: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾[هود: ١٢].

أما سورة الحجر فيبدو أنَّ الغرض من القصة فيها إظهار عاقبة المكذبين ومصيرهم؛ حتى يشفي الرسول ﷺ ما ألم بنفسه من المشركين وحتى يخفف عنه ضغط الآلام والأحزان التي كان يعانيها أيضًا من جراء السخرية والإيذاء ببيان أنه سيكفيه هؤلاء، ولعل هذا هو الغرض من قصص سورة الحجر عامة.

وإذا كان الغرض من قصة لوط في سورة هود ما علمت، فقد ناسب هذا الغرض الترتيب الطبيعي للقصة الذي كشف عن نفسية لوط من جراء ما أصابه من قومه، وناسبه أيضًا أن يكون الأسلوب رقيقًا يعبر عن عاطفة لوط نحو قومه وحرصه على هدايتهم؛ حتى يصبر رسول الله ﷺ ويتأسى.

وإذا كان الغرض من قصة لوط في سورة الحجر ما علمت، فقد ناسب هذا الغرض أن يكون الأسلوب فيه قسوة وخشونة، ولم يكن الترتيب

-مع هذا الغرض- ذا أهمية في القصة، وفوق هذا فقد علمت أنَّ القصص القرآني لا يلتزم الترتيب؛ لأنه لا يعرض للتاريخ [١].

ويقول بعض الباحثين بعد أن عرض مجموعة من الشواهد التي تدل على عدم التزام القصص القرآني للترتيب: «وهكذا فإنَّ القرآن لم يلتزم في عرضه لأحداث القصة ترتيبها في الذكر بحسب ترتيبها في الوقوع، إلا إذا كان الزمن هو المحور الذي يربط الأحداث في تسلسل وتتابع يفضيان إلى نتائج معينة كما جاء في قصة لوط: أنَّ الملائكة الذين أرسلوا إليه دخلوا على إبراهيم أولًا، ثم عليه ثانيًا. فراعى القرآن في الذكر هذا الترتيب في جميع السور التي عرضت فيها القصة»[٢].

القصة بإيجاز:

لقد ذكرت قصة لوط بإيجاز في سورة الأنبياء، وفي سورة الفرقان، وفي سورة الصافات، وفي سورة الذاريات، وفي سورة النجم، وفي سورة القمر، وقد تقدمت آيات القصة في هذه السور جميعها.

- وفوق اختلاف الأسلوب فإننا نستطيع أن نقول: إنه رغم هذا الإيجاز فهناك إضافات حملتها بعض السور.
- ففي سورة الأنبياء نرى حديثًا عن شخصية لوط عليه السلام، فقد تناول هذا الحديث لوطًا من ناحية إعطاء الله النبوة والحكمة له، ومن ناحية صلاحه وتقواه.

---

(١) انظر: الفن القصصي في القرآن للدكتور/ محمد أحمد خلف الله، ١٤٢، ٢٧٦، ويلاحظ أنَّ سورة هود نزلت قبل سورة الحجر.

(٢) سيلكوجية القصة في القرآن للدكتور/ التهامي نفرة ٩٩.

وفي سورة الذاريات نرى أنَّ بعض آياتها قد خصص المراد من الأهل في السور الأخرى وجعله مقصورًا على بعض أقربائه الحقيقيين، فلا يتناول غيرهم من المؤمنين؛ لأنه لا يوجد أحد سواهم؛ يعني: أنَّ لوطًا لم يؤمن به أحد سوى أهل بيته ما عدا امرأته، وذلك قول الله سبحانه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٥، ٢٦].

- ونفهم من بعض آيات سورة القمر كيفية نزول الحجارة على القوم من أعلى، وقد قلنا فيما مضى: إنَّ الله سبحانه أرسل ريحًا حملت هذه الحجارة ثم رفعتها وأسقطتها عليهم. وكان ذلك فهما من مضمون الآيات التي تحدثت عن العذاب، أما هنا فإننا نفهم ذلك من صريح العبارة، وذلك قول الله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ (فالحاصب: الريح تحمل الحجارة).

وفي الآية الأولى أيضًا من سورة القمر إشارة إلى أنَّ لوطًا نجاه الله وقت السحر، وهو: السدس الأخير من الليل، وذلك قول الله: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾، وهذه الإشارة قد يستفاد منها: أن لوطا خرج من القرية بأهله وقت السحر وإذا صح هذا الفهم فسورة القمر تحدد معنى القطع في قوله سبحانه في سورتي هود والحجر: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾، لكن هذا الفهم قد يعارض بفهم آخر وهو: احتمال أنَّ لوطًا خرج بأهله أول الليل وكان تجاوزه للبلاد وقت السحر[1].

(١) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان، ٦/ ١٧١.

ونفهم من بعض آيات سورة القمر: أنَّ لوطًا حذرهم من عذاب الله وبطشه كثيرًا: فتشككوا، وقد بينت سورة القمر ذلك صريحًا، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ﴾، أما السور الأخرى فقد فهم ذلك منها ضمنًا وقد أشرنا إلى ذلك ونفهم أيضًا من بعض آيات سورة القمر أنَّ الله سبحانه طمس على أعينهم عندما أرادوا تنفيذ جريمتهم فلم يعودوا يبصرون لوطا ولا من معه[1]، وذلك قول الله: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾.

وقد تحدثنا عن سر الإيجاز فيما مضى، ونقول هنا: يبدو أنَّ التفصيل كان يخضع لعامل الزمن ويطول معه. يعني أنَّ الإيجاز بدأ أولًا، ثم تلاه التفصيل. يقول بعض الباحثين:

«إذا نظرنا في قصص القرآن بحسب ترتيب النزول لاحظنا أنه بدأ غالبًا بإشارات خاطفة خالية من الحوار، كما في سورة الفجر، وسورة الفرقان؛ وذلك لأن الغرض هو إثارة الوجدان وإيقاظ الفكر.

ثم تدرج نحو الطول والتفصيل.

ومن هنا كان دخول عنصر الحوار الذي تدرج بالقصة من الإشارة إلى التفصيل، ومن العام إلى الخاص...

ولم يسلك الحوار بالقصة القرآنية مسلك التبسط فحسب، بل رسم فيها معالم الشخصيات الإنسانية، بالتعبير عن خواطرهم النفسية وآرائهم

---

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ١٢/ ١٣٦.

ومواقفهم، وما شجر بينهم من صراع، على طريقة الحكاية عنهم، ونقل أقوالهم نقلًا أمينًا لا مبالغة فيه ولا افتعال، فصاغ معانيها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه، لا على الصيغة التي صدرت فيها، ولو كان المنقول عنهم من العرب، حتى يكون الإعجاز البياني للأقوال المحكية إعجازًا للقرآن، لا لتلك الأقوال.

وهو لا ينقل كل ما دار بينهم، وإنما يختار اللقطات الموحية، والعناصر الحية التي تحقق الغرض، وتفي بالحاجة، وتكون أكثر دلالة ومغزى؛ فإن نوحًا عليه السلام بعث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما، ولكن القرآن لم ينقل من محاوراته في هذه القرون الطويلة سوى عبارات هي خلاصة دعوته وجوهرها؛ مما يخدم الدعوة الإسلامية. وينسجم مع بيئتها ...»[1].

---

(١) سيلكوجية القصة في القرين، للدكتور/ التهامي، ٤١٠ وما بعدها.

قصة شعيب عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا
لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ
وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ
صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ
لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ
قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ
مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟
فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا
كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى
وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥-٩٣].

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٨٤-٩٥].

قال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر: ٧٨- ٧٩].

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الشعراء: ١٧٦- ١٩١].

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٦-٣٧].

بين يدي القصة

ذكرت قصة شعيب بتفصيل في سورة الأعراف وسورة هود، وسورة الشعراء -إذا اعتبرنا أنَّ أصحاب الأيكة هم أهل مدين -

وذكرت بإيجاز في سورة الحجر، وسورة العنكبوت.

ومنهجنا في هذه القصة هو المنهج الذي سرنا عليه في القصص السابق: نتتبع القصة في مواضعها التفصيلية، ثم نحاول حصر الإضافات التي جاءت بها القصة في كل عرض.

ولا نطيل الحديث في مواضع الإيجاز، وقد تظهر لنا هنا وهناك بعض الأسرار فنقف عندها ونحاول إبرازها؛ حتى يتضح أنَّ هذا التكرار إعجاز لا يستطيعه بشر.

النداء الأول:

تتحدث سورة الأعراف عن هذا النداء فتقول: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ

ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥-٨٧].

المعنى:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥].

كان أهل مدين قوم شعيب وثنيون يعبدون الأصنام، وكانوا بلا شرف ولا مروءة إذا اكتالوا على الناس، أو وزنوا عليهم استوفوا حقهم أو زادوا عليه، وإذا كالوهم، أو وزنوهم يخسرون الكيل والميزان، أي ينقصونه، فيبخسون أشياء الناس وينقصون حقوقهم، وجاءهم شعيب عليه السلام فدعاهم إلى توحيد الله، ثم أمرهم بإيفاء الكيل والميزان إذا باعوا، ونهاهم عن البخس إذا اشتروا، ثم نهاهم عن الإفساد في الأرض.

وكل من النهيين يصح أن يكون عامًّا[1]، فيصح أن يشمل النهي الأول الأشياء المادية والمعنوية، فيشمل ما يكال وما يوزن، يعني لا تنقصوا الناس حقوقهم فيما يكال وما يوزن، ويشمل قيمة ما بأيديهم من أشياء

(١) في تلك الحالة يدخل تحتهما دخولًا أوليًّا: نقص الكيل والميزان.

يريدون بيعها، يعني لا تنقصوا الناس قيمة ما يريدون بيعه من أشياء. ويشمل الأقدار والمكانة، يعني لا تنقصوا الناس ما يجب لهم من التوقير والتقدير.

ويصح أن يشمل النهي الثاني كل إفساد، فيصح أن يشمل الإفساد نقص المكيال والميزان، ويشمل الإفساد بأكل أموال الناس بالباطل بغير ما تقدم، ويشمل الإفساد بالاعتداء على الأنفس والأعراض... وغير هذا.

والإصلاح لابد أن يكون بفعل فاعل، وهو إما الخالق جل وعلا، وإما الأنبياء، وإما من سار على نهجهم من العلماء العاملين والحكام العادلين، وكان شعيبًا يقول لهم هنا: لا تفسدوا في الأرض بعد أن أصلح شأنها وشأن من فيها الأنبياء والمرسلون.

ويستفاد من النص من قوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أنَّ شعيبًا كانت له معجزة تدل على صدقه في دعواه النبوة وتوجب اتباعهم له فيما يأمرهم به وينهاهم عنه؛ فالبينة المعجزة -كما يقول المفسرون- ولكن النص هنا لم يذكر نوع المعجزة، ولا نعرف لها تحديدًا من مواضع القصة في الصور الأخرى، يقول صاحب المنار: «ولم يذكر هنا ولا في سور أخرى آية كونية معينة لشعيب عليه السلام»، ثم يبين أنَّ هذه المعجزة وإن كنا لم نعرف ما هي؟ فإنها كانت معجزة حسية فيقول: «وإذا كانت البينة تشمل المعجزات الكونية والبراهين العقلية؛ لأن معناها كل ما يتبين به الحق، فإنَّ المعروف من أحوال الأمم القديمة أنها لم تكن تذعن إلا لخوارق العادات، ولو لم تكن البيئة التي أيد الله -تعالى- بها شعيبًا عليه السلام ملزمة للحجة قاطعة

لألسنة الغدر ومكابرة الحق لما ترتب عليها قوله: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ فإنَّ عطف هذا، الأمر بالفاء لا يصح إلا إذا كان مبنيًا على ما هو سبب له على صدقه ووجوب طاعته.

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ذلكم الذي آمركم به وأنهاكم عنه خير لكم في الحال والمآل فبادروا إلى الاستجابة لي إن كنتم مصدقين قولي.

فاسم الاشارة ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾، يعود إلى ما ذكر من الأمر بالوفاء في الكيل والميزان، والنهي عن بخس الناس أشياءهم، وعن الإفساد في الأرض»(١)(٢).

﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ [الأعراف:٨٦].

لا تقعدوا بكل طريق تتهددون كل من يريد أن يأتي شعيبًا ليؤمن به، وتحاولون صرفه عنه بإطلاق الشائعات والأراجيف ضده(٣). رُوِيَ أنهم كانوا يخوفون الناس بالقتل إذا آمنوا، ورُوِيَ أنهم كانوا يجلسون في الطريق فيقولون لمن أتى عليهم: إنَّ شعيبًا كذاب فلا يفتننكم عن فقد دينكم.

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا بتصرف ٨/ ٤٦٨ وما بعدها.

(٢) تفسير سورة الأعراف، للكومي ١٣٦.

(٣) قال صاحب البحر: إنَّ الصد قد يكون حقيقة بمنع الناس عن الذهاب إلى شعيب فعلًا، وقد يكون مجازًا بوعد من يصدونه بالمنافع إذا ترك الإيمان به، وكذلك قال صاحب التفسير الكبير، وعلى هذا فمن الممكن أن يقال: إنَّ الصد قد يكون حقيقة، وقد يكون مجازًا بما ذكر، أو بإطلاق الشائعات ضده.

وتحاولون أو تريدون أيضًا أن تجعلوا سبيل الله المستقيمة ذات عوج بالقاء الشبهات المشككة فيها أو المشبوهة لها، كقولهم له عليه السلام من سورة هود: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧].

ولقد كانت قريش تفعل ذلك مع رسول الله ﷺ، فعندما أحسوا ببلاغة القرآن ولم يستطيعوا مقاومة تأثيره، أخذوا يشنون حربًا دعائية ضده، فوصفوه بأنه سحر، وبأنه أساطير الأولين... ثم شنوا حربًا دعائية أيضًا ضد رسول الله ﷺ، وتعهدوا أن ينشروا ذلك في مواسم الحج، وكل هذا معروف، وكان غرضهم أن ينفر الناس من القرآن الكريم ومن الرسول ﷺ.

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مجاز عن دين الله، والباء في قوله: ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ ظرفية أي في كل صراط، ولم يذكر الموعد به؛ لتذهب النفس فيه كل مذهب من الشر؛ لأن (أوعد) لا تكون إلا في الشر، وإذا ذكر تعدى بالباء. تقول: أوعدته بالضرب، ولا تقول: أوعدته الضرب، والضمير في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾، عائد على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وذكَّره؛ لأن السبيل يذكر ويؤنث[1].

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ إنَّ شعيبًا يذكرهم بنعم الله التي تستحق الإيمان والشكر لا الجحود والنكران، والمعنى: اذكروا إذ كنتم قليلي العدد فزاد عددكم ونما بفضل الله، أو اذكروا وقت كونكم فقراء فأغناكم الله سبحانه.

(١) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان، ٥/ ١٠٨.

وانظروا كيف كان ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ إنه يخوفهم عواقب الإفساد؛ حيث كان سببًا في هلاك كثير من الأمم السابقة مثل قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط.

«ثم نصحهم أن يأخذوا أنفسهم بشيء من العدل وسعة الصدر. وأن يتركوا أتباعهم أحرارًا في عقيدتهم حتى يحكم الله بين الفريقين فقال: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧] والمعنى: «إن كان بعضكم قد آمن بما أرسلت به وبعضكم لم يؤمن بل بقي على كفره واستمر عليه فانظروا حتى يحكم الله بيننا وبينكم بحكمه العادل، فلا حكم أعدل من حكمه ولا حاكم أحسن منه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ».

ويقول صاحب الكشاف في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَا﴾.

«هذا وعيد للكافرين بانتقام الله منهم كقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾»(١).

- وتتحدث سورة هود عن هذا النداء فتقول: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ [هود: ٨٤-٨٦].

(١) تفسير الكشاف، للزمخشري، ٢/ ١٢٨.

المعنى:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾.

تقدم الحديث عن مثل هذا أكثر من مرة، ولكن بقي أن نقول: المكيال والميزان إما أن يراد بهما الحقيقة، أي: لا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود، ولا تنقصوا حجم الصنجات التي يوزن بها، وإما أن يراد ما يكال وما يوزن -يعني السلعة نفسها- فيكون التعبير من باب المجاز.

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ في ثروة واسعة تغنيكم عن ذلك.

﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ لا يترك أحد ولا يتخلف عنه.

﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أتبع النهي بالأمر، فأمر هنا بالإيفاء -أي الإتمام- «بالقسط» بالعدل من غير زيادة ولا نقصان، وهذه الكلمة تفيد أن يكون الإيفاء على جهة العدل؛ لأن ما جاوز العدل - أي زاد عليه - فهو فضل وأمر مندوب، لا واجب، وهذا الكلام واضح إذا أريد بالمكيال والميزان: ما يكال وما يوزن، أما إذا أريد الآلة في الموضعين، فإن قوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ معناه ما ذكرنا، ولكن نقول فوق هذا: إنَّ الزيادة في الكيل والوزن وإن كانت أمرًا مندوبًا إليه حالة البيع فإنها في الآلة محظور كالنقص.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ تقدم الحديث عن مثله.

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لا تفسدوا متعمدين الإفساد قاصدين إلى تحقيقه، والنهي في الموضعين عام، وقد تقدم الحديث عن ذلك:

ويلاحظ أنَّ شعيبًا عليه السلام في هذا النداء نهى قومه عن نقص المكيال والميزان، ثم أمرهم بإيفائهما وإتمامهما، ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم، وعن الإفساد في الأرض الذي يندرج تحتهما النقصان في المكيال والميزان، وكان من الممكن أن يكتفي بأمر واحد أو نهي واحد، ولكن جاء الأسلوب على هذه الصورة مبالغة في نصحهم، فيتركون ما تعودوه من سوء المعاملة التي تؤدي إلى الكسب الخبيث.

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ما أبقاه الله لكم بعد الإبقاء من الكسب الحلال خير مما تجمعونه من وراء هذا البخس.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ ما أنا بالذي يسجل أعمالكم ويجازيكم عليها، إنما أنا ناصح وقد قمت بواجبي.

• وتتحدث سورة الشعراء عن هذا النداء فتقول: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٧-١٨٤].

المعنى:

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تقدم الحديث عن مثل هذا أكثر من مرة.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أمر بإيفاء الكيل.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أمر بإيفاء الوزن؛ لأنه مقابل له، فالقسطاس: الميزان، والمستقيم: السوي الذي لا زيادة فيه ولا نقصان.

ثم نهاهم عن التطفيف الذي يضيع على الناس حقوقهم، وعن البخس والإفساد عامة، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١]، وقال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥][1].

وأخيرًا قال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: خلقكم وخلق الأجيال السابقة كلها.

وقفة مع النداء:

لقد حمل كل نداء إضافات لا توجد في غيره؛ ففي سورة الأعراف نرى هذه الإضافات التي تظهر في قول شعيب: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ

---

(١) وقد تقدم أنَّ الكيل إما أن يراد به: ما يكال، أو الآلة التي يكال بها، ويصح أن يكون المراد هنا كذلك، أما قوله: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ فإنَّ معناه: أوفوا الميزان، والميزان يصح أن يكون المراد به: ما يوزن، أو الآلة التي يوزن بها.

صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ٨٦]، ومن هذه الإضافات نفهم أنَّ هناك رذائل أخرى كان يرتكبها القوم غير البخس والتطفيف وكل ما ذكر في سورتي هود والشعراء، ومن هنا نهاهم شعيب عنها بهذا القول، وقد تقدم تفسيره.

وهذا القول يتضمن مجموعة من النواهي:

أولها: قعودهم على الطرقات التي توصل إليه يخوفون من يجيئه؛ ليرجع عنه قبل أن يراه ويسمع دعوته.

ثانيها: صدهم من وصل إليه و آمن به بصرفه عن الثبات على الإيمان والإسلام، والاستقامة على سبيل الله تعالى الموصلة إلى سعادة الدارين[1].

ثالثها: ابتغاؤهم جعل سبيل الله المستقيمة ذات عوج بالطعن وإلقاء الشبهات المشككة فيها أو المشوهة لها، كقولهم له عليه السلام الذي حكاه الله -تعالى- عنهم في سورة هود: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾[هود: ٨٧][2].

وتضيف سورة هود في ندائها قول شعيب لقومه: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾، وهذه الجملة تبين لنا وضع القوم المادي وأنهم لم يكونوا فقراء ألجاتهم ظروف المعيشة إلى هذا الكسب الخبيث، إنهم أغنياء ليسوا في حاجة، ولكنه الشره الذي لا يشبع من أصيب به.

(١) أراد بالصد معناه المجازي.

(٢) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ٨/ ٤٧٥.

وتضيف أيضًا قول شعيب: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦]، وهذه الإضافة تفيد أن شعيبًا لا يطالبهم بأن يتركوا الكسب أو يتنازلوا عنه، وإنما يطالبهم بأن يقنعوا بالكسب الحلال.

وقد يقول قائل: إنَّ الله سبحانه قال على لسان شعيب في سورة الأعراف: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فأي فرق بين هذا وبين قوله في سورة هود: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ويجاب بأن اسم الإشارة في سورة الأعراف يعود إلى ما عرف سابقًا، فهو عام، أما هنا فالكلام خاص بالقناعة في الكسب. فإن قيل: إنَّ قوله -تعالى-: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، يفهم منه بطريق الفحوى: الحض على العدل في المعاملة، وعلى هذا فإنه يدخل تحت قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

ويجاب بأنه لا مانع من ذلك، ولكن يبقى أن نقول: إنَّ سورة هود قد أفردت على هذا الحض على العدل في المعاملة بالذكر دون سائر أفراد العموم المذكور في سورة الأعراف؛ للاهتمام والعناية به، وقد يؤيد هذا أنَّ شعيبًا في سورة هود لم يكتف بالأمر بإيفاء الكيل والميزان وإنما ضم إلى ذلك النهي.

ونأتي إلى سورة الشعراء فنراها تقول قبل النداء: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦] ، وهذا يجعلنا نتساءل: هل أهل مدين هم أصحاب الأيكة، أو هؤلاء طائفة وأولئك طائفة أخرى ؟

إنَّ النص هنا يعطي بعض الإيحاءات التي تفيد أنَّ هؤلاء غير أولئك، فقد صرح القرآن بأخوة شعيب في النسب لأهل مدين عندما تحدث

عنهم في سورة الأعراف، وسورة هود، فقال في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، وقال في سورة هود الجملة نفسها، لكنه وهو يتحدث عن أصحاب الأيكة في سورة الشعراء لم يذكر هذه الأخوة فقال في افتتاح القصة ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهذه المخالفة لابد لها من سر، وقد يكون سرها أنَّ أصحاب الأيكة جماعة آخرون لا تربط شعيب بهم صلة النسب، فهم أبعد نسبًا ومكانًا من أهل مدين، ولكن شعيبًا أرسِل إليهم أيضًا. يقول بعض الباحثين: «الأيكة هي: الشجر الكثيف الملتف، وحول هذه الأشجار كانت هناك طائفة من عباد الله تسكن، ومساكنهم كانت قريبة من مدين، ولقد اشترك أهل مدين وأهل الأيكة في الكفر، واشتركوا أيضًا في نوعية الرذائل والمعاصي، فكان شعيب يتنقل بينهم ويدعو إلى الله، وإلى ترك ما هم عليه من فساد و انحراف»[1].

وذهب بعض العلماء إلى أنَّ أهل مدين هم أصحاب الأيكة، وأنَّ هذه الأشجار الكثيرة الملتفة كانت تقع في أرض مدين فنسبوا إليها.

وذهب الحافظ بن كثير إلى هذا، وبين أنَّ السبب في قطع القرآن نسب الأخوة بين شعيب وأصحاب الأيكة، أنهم كانوا يعبدون هذه الأشجار فنسبوا إلى هذه العبادة هنا[2].

---

(١) قصص الأنبياء للمرحوم الشيخ/ عبد الوهاب النجار ١٤٦، وانظر: التفسير الكبير، للفخر الرزي ٢٤/ ١٦٤، ومدين: مكان بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة، والأيكة والفيضة بمعنى واحد.

(٢) النفس تطمئن إلى الرأي الأول.

وعلى كلٍّ فإذا افترضنا أنَّ أصحاب الأيكة غير أهل مدين، تكون القصة قد ذكرت بتفصيل في سورتي الأعراف وهود فقط، وإذا افترضنا أنَّ هؤلاء وأولئك طائفة واحدة، تكون القصة قد ذكرت بتفصيل ثلاث مرات.

وعلى هذا الافتراض الثاني سنحاول أن نتتبع الإضافات في عرض القصة في سورة الشعراء.

ونراها تضيف في ندائها الأول: الأمر بالتقوى وتكرار هذا الأمر، ثم بيان أنه لا يطلب أجرًا على نصحه وهدايته، ويظهر ذلك من قوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٠٨-١٠٩]، ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٨٤].

إجابة القوم:

- تتحدث سورة الأعراف عن هذه الإجابة فتقول: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨].

المعنى: قال الأشراف الذين استكبروا من قومه: نقسم لنخرجنك يا شعيب أنت والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لترجعن إلى ديننا، أي نقسم ليكونن أحد الأمرين فاختاروا لأنفسكم.

وقولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، يقتضي أنَّ شعيبًا كان على ملة قومه قبل الرسالة كما كان المؤمنون به أيضًا على هذه الملة، وهذا مسلم

به بالنسبة لمن آمن بشعيب، ولكنه ليس مسلمًا بالنسبة لشعيب نفسه، فالأنبياء معصومون من الكبائر فكيف بالشرك ؟

ويجاب بأنَّ قول المستكبرين: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ خطاب جاء على طريق التغليب، يعني أدرج القوم شعيبًا مع الذين آمنوا به في الخطاب تغليبًا للجماعة على الواحد[1]، «وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال: إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهو يريد عودة قومه، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم وإن كان بريئًا من ذلك إجراء لكلامه على حكم التغليب»[2].

- وتتحدث سورة هود عن هذه الإجابة فتقول: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

وفي هذه الإجابة نلمح السخرية والاستهزاء، إنهم يتهكمون به وبصلاته ثم يقولون له: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾، ويقصدون عكس ما يقولون، فما أقبحهم وما أقبح إجابتهم!

ونتساءل: لماذا أسند القوم الأمر إلى الصلاة دون غيرها من العبادات؟ ويجيب المفسرون عن هذا بأنَّ شعيبًا كان كثير الصلاة مشهورًا بذلك بينهم.

وفي قوله: ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ﴾، مضاف محذوف تقديره: تأمرك بتكليفنا أن نترك؛ لأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره.

---

(١) انظر: تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ٩/ ٣، والبحر المحيط، لأبي حيان، ٤/ ٣٤٢، وتفسير سورة الأعراف، للكومي.

(٢) تفسير الكشاف، للزمخشري، ٢/ ١٢٩.

و﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ﴾، بمعنى الواو، وهو معطوف على قوله: ﴿مَا يَعْبُدُ﴾، والتقدير: تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ونفعل في أموالنا ما نشاء من التطفيف وغيره.

- وتتحدث سورة الشعراء عن هذه الإجابة فتقول: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٧].

المعنى:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ قالوا: أنت مسحور تهذي بما لا تعرف.

﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ وأضافوا: أنت بشر تشترك معنا في البشرية فلا فضل لك علينا.

وغرضهم من كل جملة من الجملتين إنكار رسالته، فهو إذا كان مسحرًا فلا يمكن أن يكون رسولًا، وإذا كان بشرًا فلا يمكن أن يكون رسولًا أيضًا.

فكل من التسحير والبشرية ينافي الرسالة.

﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ما نظنك إلا كاذبًا في دعواك، ويبدو أنَّ الظن يراد به هنا ما يقرب من الاعتقاد أو اليقين.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ طالبوه أن يحطم السماء ويسقطها عليهم قطعًا إن كان صادقًا في دعواه، ويبدو أنَّ شعيبًا هددهم بنزول العذاب إن لم يؤمنوا، ولكن القرآن طوى ذلك ولم يصرح به.

وقفة مع الإجابة:

إنَّ كل إجابة من الإجابات الثلاث السابقة تضيف جديدًا وتحمل ما لا تحمل غيرها.

فسورة الأعراف يظهر في إجابة القوم فيها: التهديد بأحد أمرين: الإخراج أو العود في دينهم وملتهم.

وسورة هود يظهر في إجابة القوم فيها سخرية القوم واستهزاؤهم، ولكننا لا نرى تطاولًا عليه أو سبًّا له.

وسورة الشعراء يظهر في إجابة القوم فيها هذا التطاول والسباب: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥]، أي أنت مسحور تهذي بما لا تعرف.

وقد يقول قائل: لقد حملت بعض إجابات القوم في سورة هود هذا التطاول، حيث قال القوم فيها لشعيب: ﴿مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾[هود: ٩١]، وقد يكون معنى هذه الجملة: لا نفهم كثيرًا مما تقول؛ لأنه هذيان وتخليط [(١)]، فأي إضافة أضافتها إجابة سورة الشعراء؟

ويجاب بأنَّ هذا صحيح، ولكن طوت سورة هود السبب الذي قالوا إنه من أجله يهذي ويخلط، أما سورة الشعراء، فقد صرحت بالسبب، إنه التسحير الذي جعله يهذي وجعل كلامه غير مفهوم.

---

(١) في البحر المحيط، لأبي حيان، أنهم كانوا يفهمون كلامه، ولكنهم قالوا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء.

وعلى هذا فسورة الشعراء قد أضافت ذكر السبب فوق التطاول. وتضيف إجابة سورة الشعراء أيضا. تطاولًا آخر وهو اتهامهم له بالكذب، تكذيبهم له الذي يفيد تكرار هذا الاتهام، وذلك قولهم: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾، وقولهم بعد أن طلبوا نزول العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ٣١].

وتضيف أنهم طلبوا منه نزول العذاب، ويفيد هذا أنَّ شعيبًا قد توعدهم بالعذاب قبل ذلك المطلب، ولكن النص لم يصرح به. ومن هنا فإننا نقول إنَّ سورة الشعراء قد أضافت استنتاجًا أنَّ شعيبًا قد توعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا.

وعلى هذا ففي كل إجابة ما ليس في الأخرى.

رد شعيب:

تتحدث سورة الأعراف عن هذا الرد فتقول: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ﴾[الأعراف: ٨٨-٨٩].

المعنى:

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ﴾أيقع منكم أحد هذين الأمرين على كل حال حتى في حال كراهيتنا لذلك، والاستفهام إنكاري. أنكر عليهم شعيب أن يقسموا على إخراجهم أو إعادتهم في ملتهم.

﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّنَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ هذا تصريح بأنهم لن يعودوا إلى ملتهم، وإنما صرحوا بهذا، ولم يصرحوا بالأمر الثاني وهو الخروج، فلم يقولوا: لن نخرج ولن نعود في ملتكم؛ لأن أمر الدين هو الأعظم والأهم[١].

ويقول المفسرون: وفي هذا الكلام معنى التعجب كأنه قيل: ما أكذبنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الإسلام؛ وذلك لأن الذي يتبع ملتكم ابتداء يعد مفتريًا على الله حيث يقول عليه ما لا يعلم، فكيف بمن كفر على علم[٢]؟!

﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ ما يصح وما ينبغي لنا أن نعود إلى ملتكم إلا إذا شاء الله سبحانه ذلك، وهذا الاستثناء يظهر أدب الأنبياء في تفويض الأمور المغيبة إلى الله. فشعيب ثقته بأنه لن يعود إلى ملة قومه لم يجزم بمشيئته، وإنما فوض أمر المستقبل لله، فقد يحدث فيه ما لا يعلمه وسبحان من أحاط علمه بكل شيء، ثم إنَّ هذا الاستثناء لا يفيد أنَّ الله سبحانه يشاء عودهم إلى الكفر، وإنما يفيد أنَّ عدم عودهم إلى الكفر ليس واجبًا على الله، ولكنه على طريق الفضل والكرم[٣].

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٤/ ٣٤٣.

(٢) انظر: تفسير سورة الأعراف، للكومي، وتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، وتفسير البحر المحيط، لأبي حيان، وتفسير القرطبي.

(٣) انظر: تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ٩/ ٣، وتفسير البحر المحيط، لأبي حيان، ٥/ ١١٠، وتفسير القرطبي، ٧/ ٢٥٠.

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ يعلن شعيب أنه يكل أمره إلى الله فهو وحده الذي يدفع عنه وعن أتباعه ما توعدوهم به، وهو وحده الذي يحميه ويحميهم من الضلال[١].

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ يدعو شعيب ربه أن يحكم بينه وبين قومه بالحق، وفي هذا الدعاء ما يدل على أنه أنهى مجادلتهم وأعرض عنهم بعد أن تبين أنهم مكابرون معاندون لا يريدون الوصول إلى الحق، فهو دعاء بنزول للعذاب عليهم.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ حيث أحاط علمك بأسباب التخاصم وتنزهت عن الظلم والهوى في الحكم.

ويقول المفسرون: «الفتح أصله إزالة الأغلاق عن الشيء واستعمل في الحكم، لما فيه من إزالة الإشكال في الأمر، ومنه قيل للحاكم: فاتح وفتاح؛ لفتحة أغلاق الحق»[٢].

- وتتحدث سورة هود عن هذه الإجابة فتقول: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٨٨-٩٠].

---

(١) هذا يفيد أنَّ الله سبحانه لا يريد عودهم إلى الكفر.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، ٥/ ٣٢٧.

المعنى:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ تقدم الحديث عن مثله [١].

﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ [٢].

إنَّ شعيبًا يبين لهم أنه حين يدعوهم إلى الأمانة في المعاملة سيتأثر مثلهم بنتائجها؛ لأنه مثلهم ذو مال وذو معاملات، فهو لا يبغي كسبًا شخصيًّا من وراء دعوته لهم، فلن ينهاهم عن شيء، ثم يفعله هو لتخلو له السوق، إنما هي دعوة الإصلاح العامة له ولهم وللناس، وليس فيما يدعوهم إليه من خسارة عليهم كما يتوهمون.

﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ يبين شعيب أنه وإن أراد الإصلاح قدر استطاعته فإنَّ نجاح هذا الإصلاح متوقف على توفيق الله، وأنه سبحانه الملجأ والملاذ له.

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ﴾ [هود: ٨٩].

---

(١) ذهب بعضهم إلى أنَّ المراد بالبينة هنا وفي مثل معناها: البصيرة والعلم بأمور الدين.

(٢) يقول صاحب البحر المحيط: إن قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ تضمن معنى أخبروني؛ ولذلك فهي تحتاج إلى مفعولين ثانيهما كملة استفهامية، وتقدير الكلام عنده: أخبروني إن كنت نبيًّا ورزقني مالًا حلالًا أستغني به عن العالمين، أيصح أن أخالف أمره، أو أوافقكم في كل ما تأتون وما تذرون.

وقوله: ﴿أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ في موضع المعقول به لأريد، وما في قوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ مصدرية ظرفية، أي مدة استطاعتي ذلك وقدرتي عليه.

لا يحملنكم الخلاف معي والعناد في مواجهتي على أن تلجوا في التكذيب والمخالفة، خشية أن يصيبكم ما أصاب هؤلاء.

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ إن لم تتعظوا بأولئك؛ لبعد مكانهم، أو لتقادم العهد عليهم. فاعتبروا بهؤلاء فإنهم بمرأى ومسمع منكم.

ثم يفتح لهم -وهم في مواجهة العذاب والهلاك- باب المغفرة والتوبة، ويطمعهم في رحمة الله والقرب منه بأرق الألفاظ وأحناها، فيقول: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، أي كثير الود والحب لمن تاب ورجع إليه.

وتتحدث سورة الشعراء عن هذه الإجابة فتقول: ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٨].

وشعيب بهذا الرد -الذي يجيب به على طلب نزول العذاب من القوم- يفوض العلم إلى الله سبحانه، فهو وحده الذي يعلم جميع أعمالهم، ويعلم أي نوع من العذاب تستوجبه، ويعلم الوقت الذي ينزل فيه العذاب.

وقفة مع رد شعيب:

إنَّ رد شعيب يحمل في كل عرض جديدًا، ويضيف في كل سورة إضافات لا توجد في غيرها:

ففي سورة الأعراف نرى إجابة شعيب تضيف إنَّ شعيبًا لن يعود هو أو أتباعه إلى ملتهم بعد أن أنقذهم الله منها، وأنهم أن إعادوا فما أكذبهم على الله!

وتضيف أنه دعا عليهم بنزول العذاب، ويظهر ذلك من قوله: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾، وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقبل أن ننتقل إلى ما أضافته إجابة سورتي هود والشعراء نتساءل: أليس هناك تناقض بين دعاء شعيب على قومه هنا، وبين تفويضه العلم بنزول العذاب إلى الله عند ما طلب القوم منه ذلك بقولهم: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، فإنَّ تفويضه العلم إلى الله يقتضي أنه لا يعلم شيئًا من العذاب، لا عن موعده، ولا عن نوعه، ولا عن استحقاقهم له، ولا عن قدرته على إنزاله، والدعاء عليهم يقتضي أنَّ عنده علمًا بذلك في الجملة، فهو يقتضي أنه يعلم استحقاقهم للعذاب بسبب كفرهم وجحودهم، أو يعلم بوحي من الله أنهم سيعذبون، وقد يؤيد ذلك قوله لهم قبل هذا الدعاء: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٧]، ثم إنَّ الباحثين في علوم القرآن يقولون: إنَّ سورة الأعراف نزلت قبل سورة الشعراء، ومقتضى هذا أنَّ تفويض العلم إلى الله يناسبها، أما الدعاء عليهم فإنه يناسب سورة الشعراء، فإنَّ النبي لا يدعو على قومه إلا بعد اليأس من إيمانهم؟

ونقول: إذا كانت الجهة منفكة بمعنى أنَّ أهل مدين غير أصحاب الأيكة، فلا تعارض ولا تناقض، وإذا كانت الجهة واحدة بمعنى أنَّ هؤلاء وأولئك جماعة واحدة، فلعل الغرض من القصة في كل من السورتين له علاقة بهذا، فما هو هذا الغرض؟

هذا المطلع في الثانية وذاك المطلع في الأولى حتى في الألفاظ والتركيب وحتى في الخروج من الإفراد في الرسل إلى الجمع. فنحن نعلم أنَّ عادًا لم يكن لها من الرسل غير هود وكذلك الحال مع قوم لوط.

وهذه الخواتيم في القصتين متفقة في الألفاظ والتركيب.

وهذا الجو العاطفي الذي يسود القصتين من حرص على الهداية من الرسل، ذلك الحرص الذي يدفعهم إلى الاستعانة ببعض الصفات التي ترقق العاطفة وتذيب القلب: من أنه أخوهم، ومن أنه الرسول الأمين الذي يبذل النصح لوجه الله ولا يسألهم أجرًا، والذي لا يطلب منهم إلا أن يتقوا الله ويطيعوه. أما هم فحريصون على المخالفة لا يقبلون النصح والإرشاد، ويصرون على موقفهم على ما فيه من فساد وضلال. فقوم هود لن يستجيبوا وسواء عليهم أوعظ أم لم يكن من الواعظين. وقوم لوط يطلبون إليه أن يكف عن وعظه وإلا كان من المخرجين.

وهكذا نرى أنَّ الأساس الذي قام عليه بناء القصتين واحد، وأنَّ الروح التي تسود القصتين واحدة -وإن اختلفت العناصر من أحداث وأشخاص وحوار في بعض الأحيان-.

إنَّ السر في هذه الوحدة هو أنَّ القصد الذي يرمي إليه القرآن من القصتين واحد. وهو الذي أشار إليه في أول السورة من حرص محمد ﷺ على هداية قومه ثم من موقفهم منه ذلك الموقف الذي لخصته السورة في الختام.

قال تعالى: ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ١-٤].

ولعل هذه الروح هي التي سادت ما ورد في السورة من قصص.

ومن هنا بنيت بناء متشابهًا، واتفقت في كثير من مواد هذا البناء.

ثم يبين هذا الموقف ويعرض أيضًا الغرض نفسه في مكان آخر فيقول -بعد أن استعرض آيات قصة صالح وقصة شعيب. في سورة الشعراء ايضًا-:

«فهاتان القصتان جمع بينهما الغرض الذي ذكر في أول هذه السورة، سورة الشعراء، وهو حرص النبي على هدايتهم مع موقفهم منه موقف اللدد والخصومة حتى ليبخع نفسه، ومن أجل هذا مضت القصة في عرض الحوادث التي تبث الثقة والطمأنينة في قلب النبي عليه السلام والتي ترد نفسه إلى الهدوء حينما يعلم من أمر غيره من الرسل؛ مثل هذا الحرص وبقاء أقوامهم على ما هم عليه من العناد»[1].

أما الغرض من القصة في سورة الأعراف فهو إظهار موقف الأشراف من دعوته، وأنَّ هذا الموقف كان موقف العناد والمكابرة، ومحاولة صرف العامة عن دين الله، وقد يؤيد هذا تصدير إجابة القوم في المحاورة التي دارت بينهم وبين شعيب بقوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ فلفظ ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾ يعني: الأشراف والسادة، ثم قول شعيب لهؤلاء الأشراف: ﴿ وَلَا تَقۡعُدُواْ

---

(١) الفن القصصي للدكتور/ محمد أحمد خلف الله ١٣٠، ط ٣.

بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦]، ثم قول الملأ بعضهم لبعض: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠].

ويبدو أنَّ هذا هو الغرض من قصص سورة الأعراف عامة يعني أنَّ الغرض: إظهار موقف الأشراف على أساس ما ذكرنا، وبيان أنَّ هذا الموقف امتد عبر القرون والأزمان، فلفظ الملأ، قد انتشر بين جنبات القصص كله.

ويبدو أيضًا أنَّ أكابر قريش في تلك الفترة التي نزلت فيها سورة الأعراف كانوا على هذه الصورة، فالقصص هنا يظهر للرسول ﷺ أنَّ هؤلاء ليسوا بدعًا من غيرهم؛ حتى لا يداخله قلق على مستقبل دعوته.

وإذا كان الغرض من القصة في سورة الشعراء إظهار حرص شعيب على هداية قومه مع موقفهم منه موقف اللدد في الخصومة، فإنَّ هذا الغرض يناسبه أن يطلب القوم نزول العذاب، وأن يفوض شعيب العلم إلى الله، فاللدد في الخصومة يناسبه أن يقول القوم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، والحرص على الهداية يناسبه أن يكون شعيب رفيقًا بهم فلا يدعو عليهم، وأن يفوض العلم إلى الله، حتى وإن كان يعلم أنهم معذبون بأعمالهم.

وإذا كان الغرض من القصة في سورة الأعراف إظهار موقف الأشراف على أساس ما ذكرنا، فإنَّ ذلك يناسبه أن يدعو عليهم وأن يكون قاسيًا معهم.

وقد يجاب بأنَّ سورة الشعراء نزلت أولًا فهي تحكي ما جرى بين شعيب وبين قومه في اللقاءات الأولى، ولم يكن شعيب في تلك الفترة يعلم عن العذاب شيئًا، فلما طلب القوم منه أن يسقط السماء عليهم كسفًا. فوض العلم في ذلك إلى الله، أما سورة الأعراف فقد نزلت بعد ذلك، فهي تحكي صورة من اللقاءات الأخيرة، وكان شعيب في تلك الفترة قد يئس من إيمانهم فدعا عليهم، أو أعلمه الله بأنَّ القوم سيعذبون فاستعجل نزول العذاب بهم.

وهذا وإن كان يخالف ما عليه الباحثون في علوم القرآن فإنه يناسب السياق في السورتين، وقد سبق أن قلنا: إنَّ بعض المفسرين قد استدل بالإظهار والإضمار على ترتيب النزول، وذلك في قوله سبحانه في سورة الأعراف في قصة لوط: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]، وقوله في سورة النمل في نفس القصة: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] ، فقد قالوا: إنَّ الإظهار يدل على أنَّ السورة نزلت أولًا والإضمار يدل على أنَّ السورة نزلت مؤخرًا، فسورة النمل نزلت قبل سورة الأعراف.

وقد ذهب إلى هذا «**الخطيب الإسكافي**» فقال في سورة الأعراف:

«وأما المسألة الثالثة، وهي إضمار آل لوط في الأعراف حيث قال: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم﴾ وإظهاره في سورة النمل لما قال: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ ، والجواب عنه أن يقال: إنَّ السورتين مكيتان وموجب

هذا الإضمار والإظهار أن يكون ما جاء فيه الإظهار نازلًا قبل ما جاء فيه الإضمار، فلما أظهر في الآية المنزلة من قبل اعتمد في القصة التي هي عند ذكرهم على الإضمار الذي أصله أن يكون بعد تقدم الذكر»[1].

وتضيف سورة هود بيان حالة شعيب المادية وأنه ليس أقل من قومه غنى، ويظهر ذلك من قوله لقومه: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

وهناك إضافات أخرى في السورتين سنتحدث عنهما فيما بعد.

أما سورة الشعراء فإنها تضيف أنَّ شعيبًا عندما طلب القوم منه نزول العذاب فوض العلم إلى الله.

إجابة القوم:

تنتهي المحاورة في سورة الشعراء، ولكنها لا تنتهي في سورة الأعراف، ولا في سورة هود.

- ففي سورة الأعراف يقول السادة والكبراء كما حكى القرآن: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾[الأعراف: ٩٠].

ويبدو أنَّ هذه المحاورة دارت بين الأشراف بعضهم وبعض، وكان الغرض منها التناصح بعدم الإيمان بشعيب عليه السلام، ومحاولة صرف الناس عن اتباعه، فلعله قد حضرها كثير من العامة، وحضرها شعيب، وفهم منها موقف القوم جميعًا. تابعيهم ومتبوعيهم.

---

(١) درة التنزيل / ١٦٣.

- ونرى سورة هود تتحدث عن الإجابة بقولها: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾[هود: ٩١].

المعنى:

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ جعلوا كلامه كالهذيان الذي لا يفهم أكثره، فقولهم: ﴿ كَثِيرًا ﴾، لا يصح أن يراد به الكل؛ لأن قولهم ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ يأبى ذلك.

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ لا حول لك ولا قوة، ولا تقدر على شيء من النفع أو الضر.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾ لولا مراعاة جانب رهطك لقتلناك رميًا بالحجارة.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ لست محترمًا أو صاحب مكانة، حتى نمتنع عن قتلك، ويقول صاحب الكشاف: «وقد دل إيلاء ضميره حرف النفي على أنَّ الكلام واقع في الفاعل لا في الفعل كأنه قيل: وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينا؛ ولذلك قال في جوابهم: ﴿أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [هود: ٩٢]، ولو كان التقدير: وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب».

مما تقدم نستطيع أن نقول:

إنَّ كل إجابة أضافت جديدًا، فقد أضافت إجابة القوم في سورة الأعراف أنَّ الملأ تناصحوا بعدم اتباع شعيب.

وهذه الإجابة تدفعنا إلى أن نقول:

إنَّ الحوار في القصص القرآني تارة يدور بين الأنبياء وأقوامهم عامة، وقد مرت بك أمثلة كثيرة على ذلك.

وتارة يدور بين الأشراف بعضهم وبعض كما هنا، وكما في سورة «**المؤمنون**» في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قصة نوح: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٤-٢٥].

وتارة يدور بين الأشراف والمستضعفين كما في سورة الأعراف في قصة صالح: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦].

وليس بلازم عندما يصدر القول من الأقوام للرسل، أو من الأشراف للرسل، أو من الأشراف للمستضعفين أن يصدر من جميع هؤلاء، وإنما يكفي أن يصدر من بعض ويرضى به الباقون، ومن منا يضيفه القرآن إليهم جميعًا، يقول صاحب المنار: «وقد قلنا: إنَّ قصص القرآن لم يقصد بها سرد حوادث التاريخ بل العبرة والموعظة، فيذكر في كل سورة من القصة الواحدة من المعاني

والمواعظ ما لا يذكر في الأخرى، ومجموعها هو كل ما أراد الله تعالى أن يعظ به هذه الأمة. فمن المعهود أنَّ الرسل عليهم السلام وكذا غيرهم من الوعاظ الذين ينهون الظالمين والمجرمين عن المنكر- يكررون لهم الوعظ بمعان متقاربة، ويسمعون منهم أجوبة متشابهة، وقد يقول بعضهم ما لا يقول غيره فيعجبهم ويقرونه عليه فيسند إليهم كلهم، كما يسند إليهم فعل الواحد منهم إذا رضوه وأقروه عليه ولو بعد فعله، كما تقدم آنفًا في إسناد عقر الناقة إلى قوم صالح وإنما عقرها واحد منهم»[1].

ثم إنَّ الحوار في القصص القرآني لم يكن مصدره دائمًا هو الإنسان... بل اشتركت فيه عناصر متباينة.

فنجد في القصص القرآني حوارًا:

بين الله والملائكة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وبين الله والإنسان:

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٨/ ٤٤٥.

قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وبين الله وإبليس:

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣-١٤] إلى آخر ما دار.

وبين الإنسان والملائكة:

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ... ﴾ [ص: ٢١-٢٢] إلى آخر الحوار.

وبين الإنسان والحيوان:

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ... ﴾ [النمل: ٢٠-٢٢] إلى آخر الحوار.

وقد يكشف القرآن عن حديث المرء لنفسه في صورة حوار، أو مناجاته لربه.

فمن الأول ما جاء على لسان إبراهيم وهو يحاور قومه: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، فقد

أضمر إبراهيم في نفسه ذلك وتحركت كلماته من وراء شفتيه، دون أن يسمعه أحد من شهود هذا الموقف، ولكن القرآن يصرح به بعد أن أصبح الحديث تاريخًا.

ومن الثاني ما جاء على لسان موسى في مدين وقد تولى إلى الظل بعد أن سقى لابنتي شعيب: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤].

وما جاء على لسان يوسف وهو يواجه إغراء النسوة في ظل التهديد، ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ[1] أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣][2].

وتضيف إجابة سورة هود مكانة شعيب الاجتماعية عند قومه وأنه ضعيف لا حول له ولا قوة، وتضيف مكانته في نفوسهم، ويظهر ذلك من قولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗا﴾ [هود: ٩١]، وقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ [هود: ٩١].

إجابة شعيب عليه السلام:

تنتهي المحاورة في سورة الأعراف، ولكنها تظل باقية في سورة هود، فنرى شعيبًا يقول للقوم فيها: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ

---

(١) سيكلوجية القصة في القرآن للدكتور/ التهامي، ٤١٢ وما بعدها.

(٢) انظر: البحر المحيط لأبي حيان، وروح المعاني للآلوسي ٦/ ٤٢٥ .

مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هـود: ٩٢-٩٣].

المعنى:

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ قد يتساءل متسائل كيف يقول شعيب في الجواب: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ في حين أنَّ كلام القوم متعلق به وبرهطه، ولم يأت فيه ذكر الله ؟

ويجاب بأنَّ القوم عند ما تهاونوا به -وهو نبي-، نزل تهاونهم هذا منزلة التهاون بالله، وحين عز عليهم رهطه دونه. كان الرهط أعز عليهم من الله.

﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ جعلتم الله كالشيء المنبوذ وراء الظهر، حيث لم تسمعوا كلام من أرسله[1].

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ إنَّ ربي قد أحاط علمًا بأعمالكم السيئة التي من جملتها رعاية جانب الرهط دون رعاية جنابه ﷻ، والإحاطة تقتضي الجزاء.

﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ﴾[2] المكانة: الحال، يقال: على مكانتك يا فلان، أي اثبت على حالك التي أنت عليها لا تنحرف، والمعنى: يا قوم اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والجحود والمعاداة لي، إني عامل على مكانتي من الدعوة إلى الله.

(١) قوله: ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾. فيه محذوف تقديره: إني عامل على مكانتي، وحذف اختصارًا

(٢) روح المعاني للآلوسي بتصرف١٢/ ١١٧.

﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾:

استئناف وقع جوابًا لسؤال مقدر، «**كأنهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون**»[1]، إلى آخره.

وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكر عملهم على مكانتهم، وعمله على مكانته، ثم أتبع ذلك بذكر العاقبة لكلٍّ، فكان القياس أن يقول: ومن هو صادق؛ لأن قوله: ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ ينصرف إلى الجاحدين، وقوله: ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾ ينصرف إليه هو، ولكن جاء التعبير هكذا؛ لأن القوم كانوا يزعمون كذبه، فجرى الكلام على ما يزعمون تسفيهًا لهم، وعلى هذا فالمعنى: ستعلمون حالكم وحال الصادق الذي زعمتم أنه كاذب لجهلكم.

وذهب «**ابن المنير**» إلى أنَّ الكلامين جميعًا لهم، فالجملة الأولى[2]، تتضمن ذكر جزائهم، والجملة الثانية تتضمن ذكر جرمهم الذي يجازون به ثم قال: «وهو من عطف الصفة على الصفة، والموصوف واحد، كما تقول لمن تهدده: ستعلم من يهان ومن يعاقب، وأنت تعني المخاطب في الكلامين، فيكون في ذكر كذبهم تعريض لصدقه، وهو أبلغ وأوقع من التصريح، ومن هنا لم تذكر عاقبة شعيب استغناء بذكر عاقبتهم».

﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ **انتظروا ما سيقع بكم إني معكم متنظر**.

---

(١) يقصد قوله: ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾..

(٢) الكشاف ٢/ ٣٣٢ بتصرف

• وهذه الإجابة حوت بعض التهديدات، وقد جاءت هذه التهديدات عن طريق التلميح أولًا، ثم التصريح ثانيًا، فقول شعيب: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [هود: ٩٣] تلميح بالتهديد، وقوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [هود: ٩٣]، تصريح به.

ونرى في القصة قبل ذلك تهديدًا صريحًا جاء مجملًا أولًا، ومبينًا ثانيًا، فقد قال لهم في أول نداء وجهه إليهم: ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤]، وقال لهم مرة ثانية: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

وليست هذه التهديدات إضافة انفردت بها سورة هود، فإننا نرى في سورة الأعراف قريبًا منها، وجاءت أيضًا عن طريق التصريح تارة، وعن طريق التلميح تارة أخرى، فقد قال لهم: ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ٨٦]، وهذا تصريح بالتهديد، وقال لهم: ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾، وهذا تلميح به.

ونرى في سورة الشعراء تهديدًا يتمثل في الأمر بالتقوى الذي تكرر أكثر من مرة، وعلى هذا فالتهديد في سورة الشعراء يفهم عن طريق التلميح لا التصريح، ومن هنا نقول: إنَّ المحاورة في سورة الشعراء كانت أخف وقعًا على نفوس المشركين من غيرها.

وإلى جانب هذا الترهيب والتهديد نرى ترغيبًا في كلٍّ من سورتي الأعراف، وهود، يختلف كلٌّ منهما عن الآخر ويضيف للقصة جديدًا،

فقد جاء الترغيب في سورة الأعراف بقول شعيب: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا﴾ [الأعراف: ٨٦]، وجاء في سورة هود بقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ [هود: ٩٠].

نحن نرى أنَّ الترغيب في سورة الأعراف جاء بشيء محسوس واقع، فهو تذكير بضرب من نعم الله عليهم، أما الترغيب في سورة هود، فقد جاء بشيء، معنوي، فهو يطمعهم في عفو الله ورحمته إذا طرقوا بابه أو وقفوا على أعتابه.

الحديث عن النهاية:

- تتحدث سورة الأعراف عن النهاية فتقول: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٢ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩١-٩٣].

- وتتحدث سورة هود عن هذه النهاية فتقول: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤-٩٥].

- أما سورة الشعراء فتقول في الحديث عنها: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٨٩- ١٩١].

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن بعد عرض هذه الآيات: هل كان عذاب القوم عذابًا واحدًا، أو أنواعًا من العذاب؟

ويجاب بأنه عذاب واحد، حتى ولو أريد بأصحاب الأيكة جماعة آخرون غير أهل مدين، وهذا العذاب هو الصاعقة، والصاعقة قد يطلق عليها رجفة؛ لما يصاحبها من اضطراب الأرض، وقد يطلق عليها صيحة؛ لما يصاحبها من صوت مفزع.

أما الظلة فقد دلت إلى الصاعقة، يقول بعض المفسرين في معنى قوله سبحانه: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾: «أخذهم حر خانق شديد، ثم ظهرت لهم سحابة فاستظلوا بها، فإذا هي الصاعقة المجلجلة فدمرتهم تدميرًا».

وذهب بعض العلماء إلى أنَّ أحدًا لا يستطيع أن يكشف المراد من قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ استنادًا إلى ما قاله ابن عباس: «من حدثك ما عذاب يوم الظلة فقد كذب».

ويبدو أنَّ كلام ابن عباس محمول على التفصيلات التي ذكرت في بعض الروايات عن عذاب يوم الظلة والتي تحمل في طياتها الخرافات والأباطيل.

ويذكر ابن كثير سر الاختلاف في التعبير عن العذاب في هذه السور فيقول: «فذكرها هنا - يقصد سورة هود - أنهم أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه،

ففي الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ [الأعراف: ٨٨]، ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبتهم منها، وها هنا لما أساءوا الأدب على نبيهم[١] ناسب ذكر الصيحة التي أسكتتهم وأخمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وهذا من الأسرار الغريبة الدقيقة، والله الحمد والمنة كثيرًا دائمًا»[٢].

ومن الإضافات التي نراها أثناء الحديث عن النهاية قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وقد أضافتها سورة الأعراف وانفردت بها، وقد سبق الحديث عن مثلها في قصة صالح.

وقد يقول قائل: كيف تكون هذه إضافة مع أنَّ شعيبًا قد قال لقومه في سورة هود: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود:٨٦]، وقال لهم في سورة الشعراء: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧]، وكل من القولين يفيد أنَّ وظيفة شعيب هي البلاغ، كما تفيده الإضافة المدعاة؟

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) انظر: البحر المحيط، لأبي حيان، ٥/ ٤٦٣، والقرية قد تستعمل بمعنى المدينة.

ويجاب بأنَّ قول شعيب في سورة الأعراف كان إضافة باعتبار أنه قاله بعد انتهاء المحاورة وبعد نزول العذاب بالقوم.

القصة بإيجاز:

لقد ذكرت قصة شعيب بإيجاز في سورة الحجر، فقال سبحانه: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨-٧٩]، والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يعود إلى قرية لوط وقرية شعيب، فإنهما يقعان في طريق واضح، أي مطروق يمر به الناس.

كذلك ذكرت القصة بإيجاز في سورة العنكبوت فقال ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦-٣٧].

والسورتان تتفقان في أنَّ كلًّا منهما تبرز نزول العذاب بالقوم، والسبب الذي من أجله استحقوا هذا العذاب، لكن هذا السبب قد اختلف في كل سورة عن الأخرى فهو في سورة الحجر: الظلم، وفي سورة العنكبوت: التكذيب.

وتضيف سورة العنكبوت أنَّ شعيبًا دعاهم إلى شيء جديد لم يظهر بصريح العبارة غير هنا، وذلك قوله: ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾.

فهذه الجملة يستفاد منها الدعوة إلى الإيمان بالبعث، وهذا ما لا يوجد في غير هذه السورة.

وقد يتساءل متسائل: كيف يقول الله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ وكلام شعيب الموجه إلى قومه هنا أمر ونهي، والأمر لا يصدَّق ولا يكذَّب، وكذلك النهي، فإنَّ من قال لغيره: قم، أو لا تقم لا يصح أن يقال له كذبت.

ويجاب بأنَّ كلام شعيب يتضمن إخبارات كأنه قال لهم: **الله واحد فاعبدوه، والحشر كائن فارجوه، والفساد محرم فلا تقربوه**[١].

وهذه الإجابة والاعتراض المثار نقلناهما عن الفخر الرازي، ومن هذه الإجابة نفهم أنَّ عبارة شعيب ﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ ﴾، تفيد دعوته قومَه إلى الإيمان بالبعث والحشر كما قلنا.

ولعلك قد فهمت سر الإيجاز فيما مضى.

(١) انظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي، ٢٥/ ٦٥.

خاتمة

وأخيرًا، وبعد أن عرضنا مجموعة من القصص القرآني نتساءل: ألا يوجد في هذا التكرار تعارض، فقد رأينا كلامًا للرسل يختلف في كل عرض عن الآخر، ورأينا إجابات للقوم تختلف هي الأخرى عن بعضها؟

يجيب، الخطيب الإسكافي عن هذا التساؤل فيقول: «للأنبياء مقامات مع أممهم يكون فيها الإعذار والإنذار، ويرجع فيها عودًا على بدء الوعد والوعيد، ولا يكون دعاؤهم إلى الإيمان بالله، ورفض عبادة ما سواه في موقف واحد بلفظ واحد لا يتغير، بل الواعظ يتفنن في مقاله، والجاحد المنكر تختلف أجوبته في مواقفه.

فإذا جاءت المحكيات على اختلافها لم يطالب -وقد اختلف في الأصل- باتفاقها؛ لأنه قال لهم مرة باللفظ الذي حكي، ومرة بلفظ آخر في معناه كما ذكر.

وكذلك الجواب يرد من أقوام يكثر عددهم ويختلف كلامهم ومقصدهم وصدق الخبر يتناول الشيء على ما كان عليه، فلا وجه للاعتراض بهذا ونحوه»(١).

والله أعلم

(١) درة التنزيل، للإسكافي/ ١٥١.

قائمة المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٢. أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، لمحمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ت عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة.

٣. أسرار ترتيب القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع.

٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، ت محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨هـ.

٥. البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي ابن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، ت صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ.

٦. البرهان في علوم القرآن، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله ابن بهادر الزركشي، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧ م.

٧. تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت.

٨. تفسير القرآن الكريم، للإمام الشيخ/ محمود شلتوت، ط دار الشروق.

٩. التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، لأبي عبد الله محمد بن عمر ابن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

١٠. تفسير المنار، لمحمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ م.

١١. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، لأبي عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي، ت أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

١٢. درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين، طبع بيروت.

١٣. روح البيان، لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي، دار الفكر - بيروت.

١٤. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، ت علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٥. زاد المسير في علم التفسير، لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ت عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٢ هـ.

١٦. شفاء الغليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم، المكتبة التوفيقة.

١٧. صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، دار طوق النجاة.

١٨. العقيدة والشريعة في الإسلام للمستشرق المجري ولد زيهز، دار الكتاب المصري.

١٩. الفن القصصي في القرآن الكريم للدكتور: محمد أحمد خلف الله، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى.

٢٠. في الأدب الجاهلي، لطه حسين، دار المعارف.

٢١. قصص الأنبياء للمرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار، دار النصر.

٢٢. القصص القرآني في منطوقه ومفهومه للأستاذ / عبد الكريم الخطيب، دار المعرفة، لبنان.

٢٣. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٠٧ هـ.

٢٤. الوحي المحمدي، لمحمد رشيد بن علي رضا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

فهرس المحتويات

Amiria
المطابع الأميرية